

التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تأليف

لجنة من العلماء

بإشراف

مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

المجلد الثانى

الحزب الثالث والعشرون

الطبعة الأولى ١٤٠٠ هـ — ١٩٨٠ م



التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تأليف

لجنة من العلماء

بإشراف

مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

المجلد الثانى

الحزب الثالث والعشرون

الطبعة الأولى ١٤٠٠ هـ — ١٩٨٠ م

القاهرة

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

١٩٨٠

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رئيس مجلس الادارة
محمد حمدى السعيد

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٧٩/١٦٧٩

الهيئة العامة لشئون المطابع الاميرية

٢٥٠٠٠٤-١٩٧٩-٦٩٤

(* وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾)

المفـردات :

(دابَّةٍ):هى اسم لكل حيوان يدب على الأرض زحفا أو على قوائم ، مأخوذة من الدبيب وهو الانتقال البطىء،والمقصود منها هنا جنس الحيوان من ماشية وسباع وهوام وحشرات وغيرها ويدخل فيها الإنسان ، فإنه يدب على الأرض ، ومنه قول الشاعر :

إنما الشيخ من يدب دبيبا .

(مُسْتَقَرَّهَا):موضع استقرارها وإقامتها .(وَمُسْتَوْدَعَهَا): ومكان استيداعها ووجودها إلى حين تنقل بعده إلى غيره . (كِتَابٍ مُّبِينٍ): هو كناية عن علم الله تعالى،أو هو اللوح المحفوظ.

التفسير

٦ـ (وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا ...) الآية .

بين الله فى الآية السابقة أن الكافرين مهما حاولوا الاستخفاء من الله تعالى بما يظنون أنه يخفيهم عنه ، ومهما تستروا فى كفرهم وعداوتهم للرسول فإنهم لا يخفون على الله العليم بما يسرون وما يعلنون ، وجاءت هذه الآية لتقرر ما سبق ،ببيان شمول رزقه تعالى وعلمه لكل دابة فى الأرض .

والمعنى : وما من حيوان فى أى جزء من أجزاء الأرض ، ذكرا كان أو أنثى يمشى على رجلين أو يمشى على أربع ، أو يمشى على غير هذه الصور ، إلا تكفل الله برزقه اللائق به ، وأوجبه على نفسه تفضلا وإحسانا .

وكما تكفل برزقه أينما كان يعلم مستقره وموطنه الذى ولد ونشأ فيه ، ومستودعه الذى يرحل إليه لطلب الرزق وغيره ، كما يعلم مساكنه فى أدوار حياته ويعلم ما يودع فيه بعد مماته ، كل ذلك فى كتاب بين واضح .

والكتاب المبين هنا : إما كناية عن علم الله تعالى ، وإما حقيقة مراد منها اللوح المحفوظ .

وتذييل الآية بهذه الجملة ، للإيذان بأنه تعالى لا يبتدئ العلم بأحوال الدواب ابتداء ، بل علمه بها أزلى قديم ، وواضح لديه أمرها قبل خلقها ورزقها وإيوائها فى مستقرها ومستودعها ، وأنه دبر أمرها أزلا على النحو الفائق العجيب الذى أراده لها ، وأبرزها عليه وفق تدبيره الأزلى القديم فتبارك الله أحسن الخالقين .

(وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾)

المفردات :

(سِتَّةِ أَيَّامٍ) : المراد بالأيام : أيام الله لا أيامنا نحن ولا يعلمها إلا الله ، وسيأتى الحديث عنها .

(وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ) : وكان عرشه فوق الماء ، ولا يقتضى هذا أن يكون العرش فوقه مباشرة ، وسيأتى تفصيل الحديث عن هذه الجملة فى تفسيرها .

التفسير

٧ - (وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ) :

بعد أن بين الله سبحانه فى الآية السابقة تكفله بأرزاق دواب الأرض ، وعلمه بجميع أحوالها ، بين فى هذه الآية خلقه للسموات والأرض ، وأيام خلقه لها ، ليعلم الناس عظمته تعالى ، فلا يشركوا به فى العبادة ما ليس له دخل فى خلق ولا رزق ، بل يتنافسوا فى إحسان العمل والتقرب به إليه سبحانه ، ونعى عليهم فيها إنكارهم للبعث بعد الموت للحساب والجزاء ووصفهم للقرآن الذى أخبرهم بذلك بأنه سحر مبين .

واعلم أن أصل السموات والأرض الدخان ، قال تعالى : « ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ »(١) . وقال جل وعلا فى سورة الأنبياء : « أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا »(٢) .

ويقول أهل العلم الحديث : إن أصل العالم غاز الهيدروجين ، وهم بذلك يهتدون إلى ما سبقهم به القرآن العظيم بأكثر من ألف عام ، وتحويلُ هذا الدخان إلى سموات وأرضين ، استغرق ستة أيام كما نصت عليه الآية الكريمة ، ولا يصح حمل الأيام هنا على أيامنا فى أرضنا ، فإنها نشأت بعد خلق السموات والأرض ، وأيامنا على قدر حجم أرضنا ، والأيام فى الكواكب الأخرى على قدر حجمها صغرا أو كبرا .

أما الأيام التى استغرقها خلق السموات والأرض ، فهى بقدر عظمة هذا الكون وما يقتضيه من زمان طويل جدا ، حتى يتم تحويل الغاز أو الدخان إلى سموات وأرضين ، كما تقتضيه سنة التطوير التى شاءها الله تعالى ، مع أنه قادر على أن يقول لها كونى فتكون فورا .

ولقد ضرب الله مثلا لأيامه بقوله سبحانه : « وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ »(٣) . وبقوله : « تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ »(٤) . وذلك يقتضى أن أيام الله ليس لها حد معين وأنها تكون فى طولها وامتدادها حسب الأمر الذى تتصل به ، وفى موضوع تكوين السموات والأرض قد تكون الأيام أطول من هذين المثلين وربما وصل اليوم فيها إلى ملايين السنين ، وليس من الحكمة تحديد مدى أيام الله تعالى فذلك شأنه تعالى ، ولا سبيل لنا إلى علمه ، وعلى هذا يكون معنى الجملة من الآية ما يلى :

وهو الذى خلق السموات والأرض مادة وصورة ، وهيأ لها كل ما خلقت لأجله من العناصر والوظائف والمواضع فى هذا الفضاء الرهيب ، ووصل بينها بالقوى التى تربط بعضها ببعض من غير عمد ترونها ، وكان ذلك كله فى سته أيام من أيامه تعالى ، حتى تمت على أجمل صورة وأكمل إبداع ، وأقوى بناء ، فلا ترى فيها من غيب ولا فطور وشقوق . وصدق الله إذ يقول : « الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ

---

(١) سورة فصلت ، من الآية : ١١ (٢) سورة الأنبياء ، من الآية : ٣٠
(٣) سورة الحج ، من الآية : ٤٧ (٤) سورة المعارج ، من الآية : ٣

فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ . ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ »(١) .

(وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ) : دلت هذه الجملة على أن عرشه تعالى كان على الماء قبل خلق السموات والأرض ، فكأنه قيل : وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام فى حال كون عرشه تعالى على الماء . ويدل صراحة لهذا المعنى : ما جاء فى كتاب بدء الخلق بصحيح البخارى من حديث عمران بن حصين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « كان الله ولم يكن شيء غيره ، وكان عرشه على الماء ، وكتب فى الذكر كل شيء وخلق السموات والأرض » .

فهذا الحديث يدل على أنه تعالى أزلى لا أول له ، وأنه لم يكن يشاركه شيءٌ غيره فى الوجود وأنه سبحانه كان عرشه على الماء وأنه كتب كل شيء قبل خلق السموات والأرض ، وأنه خلق السموات والأرض بعد ذلك ، ومن هذا كله يعلم أن الماء مخلوق قبل خلق السموات والأرض ، فهو أصل خلقهما ومادته وأصل كل شيء حى ويدل لذلك صراحة قوله تعالى : « أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ »(٢) . قال الشيخ رشيد رضا فى شرح قوله تعالى :
(وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ) : نفهم منه أن الذى كان دون هذا العرش من مادة هذا الخلق قبل تكوين السموات والأرض أو فى أثنائه هو هذا الماءُ الذى أخبرنا عز وجل أنه جعله أصلا لخلق جميع الأحياء ، إذ قال : « أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ » . والرؤية هنا علمية .

والمعنى : ألم يعلموا ما ينبغى أن يعلموه من أن السموات والأرض كانتا مادة واحدة لا فتق فيها ولا انفصال — وهى ما يسمى فى عرف علماء الفلك بالسديم ، وبلغة القرآن بالدخان — ففتقناهما بفصل بعضهما من بعض ، فكان منها ما هو سماء ، ومنها ما هو أرض ، وجعلنا من الماء فى المقابلة لحياة الأحياء كلّ شيء حيّ . ا هـ

(١) سورة الملك ، من الآيتين : ٣ ، ٤
(٢) سورة الأنبياء ، من الآية : ٣٠

واختلف فى المراد من عرش الله الذى كان على الماء ، فمن العلماء من يفهمه على أنه جسم كونى عظيم ، خلقه الله أول ما خلق ، وجعله مصدر أوامره فى الكون الذى شاء إنشاءه بعده . والله يعلم مادته وصورته ، ومعنى كون عرشه تعالى على الماء على هذا أنه فوقه ، وهذا لا يلزم منه أنه فوقه مباشرة بحيث يكون مرتكزا عليه . فأنت تقول : السحاب على الأرض أو فوق الأرض ، مع أنه ليس مباشرا بالعلو والفوقية لها . بل بينهما فراغ .

قال الشيخ رشيد رضا بعد ما نقلناه عنه سابقا فى شرح الآية : فيفهم من هذا وذاك أن الذى كان تحت العرش فينزل إليه منه أمر التدبير والتكوين هو الماء الذى هو الأصل لجميع الأحياء ، ثم قال : والعبارة ليست نصا فى أن ذات العرش المخلوق كان على متن الماء ، كالسفن التى نراها راسية فيه الآن كما قيل - اه من ص ١٦ ج ١٢ طبعة الشعب .

ومن العلماء من ذهب إلى أن العرش كناية عن الملك والسلطان وَرَمْزٌ له ، ومعنى قوله تعالى : (وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ) - على هذا الرأى - وكان سلطانه على الماء ليخلق منه ما يريد خلقه من السموات والأرض ، وقد تقدم الكلام فى سورة الأعراف - الآية ٥٤ - على قوله تعالى : « ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ » فارجع إليه لتعرف تفصيلا أكثر لما قاله العلماء فى معنى العرش والله تعالى أعلم .

(لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً) : أى وهو الذى خلق السموات والأرض ، وكان سلطانه على الماء فى خلق ما يريد ، وسخر لكم ما فى السموات والأرض ليمتحنكم ، فيظهر أيكم أحسن عملا من سواه ، فيجازيكم على عملكم لا ما علمه أزلا بكم ، فإن العمل حجة على صاحبه ، ويفهم من ذلك أن الله تعالى خلق الكون ليعبده العقلاءُ من خلقه فيه ، فإنه سبحانه ماخلقهم إلاليعبدوه كما قال تعالى : « وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ . مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ . إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ »(١) .

وإنما جعل الله ذلك غاية لخلقه السموات والأرض ، لأنه تعالى زود عباده بالعقل والاستعداد للنظر فى الآيات الكونية التى بثها سبحانه فى أرجاء السموات والأرض ، وجعلها مصدرا

(١) سورة الذاريات ، من الآيتين : ٥٦ ، ٥٨

لخيراتهم ومنافعهم ، وجعل ذلك كله شاهدا لأنه هو الخالق المدبر الحكيم ، الرءوف الرحيم . المستحق لشكرهم إياه بالإخلاص فى عبادته وحده ، وإنما اقتصر فى البلاء على أيهم أحسن عملا ، مع أن منهم من هو حَسَنُ العمل ومنهم من هو سيئه ، ليحثهم بذلك على التنافس فى إحسان العمل ، وليرشدهم إلى أن الغاية العظمى من خلق ذلك هو أن يكونوا فى عملهم على أحسن وجه وأكمله ، بقدر استطاعتهم واجتهادهم وفى حدود طاقتهم .

(وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ) :

أى ولئن قلت أيها النبي تبليغا للناس إنكم جميعا مبعوثون من بعد الموت للحساب وما يترتب عليه من ثواب أو عقاب وأقمت الأدلة عليه .

(لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ) : أى لانفرد الكافرون بإنكار البعث ، وليقولُن تكذيبا لك : ما البعث الذى تخيفنا منه ، أو القرآن المشتمل على الإنذار به ، إلا كالسحر يخدع ويغر ولا ثبات له ولا دوام ، يعنون بذلك أن لا بعث ولا حساب ولا ثواب ولا عقاب .

(وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾)

المفردات :

(أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ) : مدة قليلة . (مَا يَحْبِسُهُ) : ما يمنعه .

(مَصْرُوفًا عَنْهُمْ) : مدفوعا ومتحولا عنهم . (حَاقَ بِهِم) : أى نزل وأحاط بهم .

التفسير

٨- (وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَايَحْبِسُهُ) : بعد مابينت الآية السابقة ما يقوله المشركون إنكارا للبعث ، بينت هذه الآية ، ما يقولونه إنكارا للعذاب الذى أنذرهم إياه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

والمعنى : ولئن أخرنا عن هؤلاء المكذبين العذاب الموعود الذى أنذرهم النبي صلى الله عليه وسلم بوقوعه إن استمروا فى كفرهم وعنادهم ، لئن أخرناه إلى مدة من الزمن معدودة مقدرة فى علمنا ، كما هو شأننا فى تحديد الآجال « لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ » لئن أخرناه هكذا ليقولن منكرين مستهزئين : أى شئ يمنع وقوع هذا العذاب بنا ؟ يقصدون بذلك التكذيب بوقوعه . فيرد الله عليهم بقوله تعالى :

(أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) :

والمعنى : أنَّ الله تعالى يؤكد بهذه الجملة وقوع العذاب بهم حينما يأتى الوقت المقدر لوقوعه ، ويومئذ لا يصرفه عنهم صارف ولا يحبسه عنهم حابس وقد أحاط بهم العذاب الذى كانوا به يستعجلون استهزاءً وتكذيباً .

(وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾)

المفردات :

(أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً) : أعطيناه نعمة ذاق لذتها . (نَزَعْنَاهَا) : سلبناها وأخذناها . (لَيَئُوسٌ) : لشديد اليأس من عود ما سلب منه .

(كَفُورٌ) : مبالغ فى جحد النعمة وعدم شكرها . (نَعْمَاءَ) : نعمة من صحة وغنى وغيرهما ، ولم يرد فى القرآن لفظ النعماء إلا فى هذه الآية . (ضَرَّاءَ) : من فقر ومرض وغير ذلك . (مَسَّتْهُ) : أصابته ولحقته . (فَرِحٌ) : كثير الفرح بطرا .
(فَخُورٌ) : مبالغ فى الفخر بها والتعالى على عباد الله .

التفسير

٩ - (وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ) :

جاءت هذه الآية والآيتان بعدها لبيان حال الإنسان وطبيعته عند الابتلاء بالسراء والضراء ، وأنه لايصبر على المحن ولا يشكر النعم إلا الصالحون .

والمعنى: ولئن أعطينا الإنسان منا نعمة من النعم وأذقناه حلاوتها ولذتها ، كالصحة والمال والولد البار ، ثم أخذناها منه فإنه يجمع بين شيئين: المبالغة فى اليأس من عودة مثل ما سلب منه ، والمبالغة فى جحد النعمة وعدم شكر ما بقى منها ،ونعم الله لاتحصى ، وإنما يفعل ذلك لحرمانه من فضيلتى الصبر والشكر ، فهو لذلك لايرجو ثوابًا ، ولا يخطر بباله أن الله سيردها إليه أو مثلها أو خيرًا منها إن هو صبر أو شكر ، مع أنه لايقنط من رحمة الله إلا الضالون .

١٠ - (وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي) :

أى وإذا أنعمنا على الإنسان بما تطيب به حياته ويشعر بلذته - أنعمنا عليه بذلك - بعد ضر كان يقاسيه ويعانيه ، ليقولن مطمئنًا إلى بقاء هذه النعمة . قد مضى البأس وانقضى الضُّرُّ ولن يعود .

(إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ): أى إنه نسى ما كان فيه من ضَرَّاءَ ، واطمأن إلى بقاء النعمة الطارئة ، وفرح بها فرح بطر وغرور وتفاخر بها على عباد الله ، وغاب عن ذهنه شكر الله عليها ، وأن الله قد يحرمه منها بعدم قيامه بشكره من أجلها .

١١ -(إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) : لما بين الله تعالى حال جنس الإنسان الذى ييئس من رحمة الله إن أصابته محنة ، والذى يكفر بالنعمة بعد الضر فلا يشكر

الله عليها ، ويظن بقاءها ويتفاخر بها على عباد الله ، جاءت هذه الآية لتبين صنفًا من الناس ليسوا على شاكلة هؤلاء وأولئك ، وهم الذين يصبرون عند نزول المحن والشدائد استسلامًا لقضاء الله ويضبطون أنفسهم عند امتحانها بالغنى فلا يفرحون ولا يغترون . شكرًا لنعم الله عند السراء ، وامتثالا لأمر الله تعالى وتقربًا إليه فى حال النعماء .

والمعنى : لكن الذين صبروا على الابتلاء ، وعملوا الصالحات فى الضراء والسراء .

(أُولَٰئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ) : أى أولئك الموصوفون بهذه الصفات الحميدة المخالفة لصفات من قبلهم ، لهم مغفرة من الله تعالى يستر بها ذنوبهم ، وأجر كبير فى الآخرة لصبرهم فى الشدة وشكرهم فى الرخاء ، ولأنهم ردُّوا ما ينالهم من خير إلى فضل الله ، وما يقع عليهم من ضر إلى قدر الله تعالى الموافق للحكمة والصواب .

(فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾)

المفردات :

(فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ) : لعلك راغب فى عدم إسماعهم بعض ما يوحى إليك من دلائل نبوتك كراهة معارضتهم لك ، وترويضًا لنفوسهم .

(لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ) : أى هلا أعطى الله محمدًا مالًا ينفقه . (وَكِيلٌ) : حفيظ مطلع يحفظ أحوالك وأحوالهم . (افْتَرَاهُ) : اختلقه . (يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ) : يجيبوكم . (مُّسْلِمُونَ) : منقادون لله .

التفسير

١٢ - (فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ .....) :

هذه الآية واللتان بعدها لتسلية الرسول والتخفيف عن نفسه الشريفة بِسَبَبِ مايجده من عناد المشركين واقتراحهم الآيات ، مع كفاية ما جاءهم به منها فى الإيمان .

كما أنها مسوقة لبيان أنه صلى الله عليه وسلم ليس مسئولا عن كفرهم ، فما هو إلا منذر ، والله وكيل ورقيب عليهم .

والمعنى : فلعلك يامحمد تارك إسماعهم بعض ما يوحى إليك من الآيات الدالة على حقيقة نبوتك ، المنادية بكونها من عند الله تعالى لمن له أذن واعية وقلب رشيد ، ولعلك يضيق صدرك بتلاوته عليهم وتبليغه إياهم أثناء المحاجة والدعوة إلى الإيمان ، بسبب معارضتهم الشديدة لك ، وإصرارهم على رفض ماجئتهم به من التوحيد والوعد والوعيد وبسبب قولهم هلا أعطى مالًا كثيرًا كما يعطى الملوك والعظماء ، ليكون ذلك أمارة على أن ربه يشد أزره ولا يدعه فقيرًا بين الناس ،وهلا جاء معه ملك يؤيده ويشهد له بالنبوة. فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ،ولا تترك تبليغهم شيئًا مما أوحى إليك ، ولا يضق صدرك بما يقولون ، فإنه لاينبغى لمثلك أن يتأثر بمثل هذا القول الدال على ضعف تفكيرهم وشدة وطأة الحق الذى جئت به عليهم ، فهم يحاولون التنفيس عن أنفسهم وتخفيف وطأته عليهم .

(إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ) : ما أنت يامحمد إلا منذر لكل مكذب ولست عليهم بمسيطر فدع أمرهم لله فإنه هو الموكل بأمور خلقه والعالم بها ، يحصى عليهم أعمالهم ويجازيهم بها أتم الجزاء ، فتوكل عليه وفوض أمرك إليه .

١٣ - (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ) :أى بل أيقولون إن محمدًا اختلق القرآن من عند نفسه ونسبه إلى الله تعالى. قل لهم أيها الرسول إن كان الأمر كما تزعمون فأتوا بعشر سور مفتريات مثل القرآن فى بلاغته وحسن تنسيقه ، فإنكم أهل الفصاحة وفرسان البلاغة الحريصون على إبطال دعوتى .

(وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) : أى واستعينوا على ذلك بما تشاءون ، وادعوا من استطعتم دعوته فى المعارضة ، أو فادعوهم ليشهدوا لكم إن كنتم صادقين فى دعواكم : أنى اختلقته وأنه ليس من عند الله تعالى .

١٤ - (فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللهِ وَأَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ):

إن كان الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين كان المعنى : فإن لم يستجب هؤلاء المشركون إلى ما دعوتموهم إليه من معارضة القرآن وحدهم أو مع من يشد أزرهم فاثبتوا على العلم الذى أنتم عليه ، وازدادوا يقينًا وثباتًا بأنه منزل من عند الله تعالى ، وأنه لا إله إلا الله ،لأنه العالم بما لايعلمه غيره والقادر على مالم يقدر عليه سواه ،ومن ذلك اختصاصه بالقدرة على إنزال هذا القرآن الذى أعجز البشر .

وإن كان الخطاب للمشركين كان المعنى : فإن لم يستجب لكم من تدعونهم للشهادة على أن محمدًا اختلقه ولم يوافقوكم على دعواكم ، فاعلموا أنما أنزل بعلم الله المحيط بحاجات البشر فى التشريع والسلوك ، وأنه لا سبيل إلى أن يؤلف مثله بشر ، واعلموا أيضًا أنه لا شريك له تعالى حتى يأتى بمثل هذا القرآن. (فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ) :أى أسلموا أيها الكفار وأخلصوا لله وحده حيث ثبت عجزكم وعجز من استعنتم بهم عن معارضة القرآن .

هذا إذا كان الخطاب هنا وفيما قبله للكفار ، فإن كان للمسلمين على ما تقدم بيانه فالغرض منه حثهم على الثبات أمام حرب المشركين لهم ، أى فهل أنتم ثابتون على إسلامكم أمام أعدائكم بعد أن وضح الحق ، واختفى الباطل ، يريد بذلك الأسلوب إلهاب عزائمهم .

(مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾)

المفردات :

(وَزِينَتَهَا) :الزينة ما يتزين به من اللباس والأثاث والأولاد والأسباب

(نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ) : توصل إليهم جزاء أعمالهم وافيًا كاملًا .

(لايُبْخَسُونَ) : لاينقصون شيئًا من أجورهم .(وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا) : أى بطل وضاع ثواب عملهم فى الآخرة .

(وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ) : أى لا قيمة له حيث لم يعمل لوجه الله .

التفسير

١٥ - (مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا . . .) :

بعد ما ثبت أن القرآن من عند الله تعالى بعجزهم عن الإتيان بمثله ، جاءت هذه الآية والتى بعدها لتبين أن من ينصرف عن العمل به إلى الاهتمام بالدنيا وحدها وترك العمل للآخرة ، عاقبتُه الخسران المبين .

والمعنى : من كان كل همه ومقصده من وجوده الدنيوى التمتع بلذات الدنيا وما يتزين به فيها فيعمل للتمتع بملذاته فيها ، دون أن يهتم بلقاء الله تعالى والعمل للآخرة بالبر والإحسان وتزكية النفس بالإيمان والتقوى .

(نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعمَالَهُم فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَايُبْخَسُونَ) : أى نعطهم جزاء أعمالهم وافيًا فى الدنيا ، من الصحة والرياسة وسعة الرزق وكثرة الأولاد وغير ذلك ، وهم فيها لاينقصون شيئًا من أجورهم الدنيوية «وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا» . ثم بين الله تعالى عاقبة أمر هؤلاء فى الآخرة فقال:

١٦ - (أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى الْآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَاصَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّاكَانُوا يَعْمَلُونَ) : أى أولئك الذين لايريدون إلا زينة الحياة الدنيا وبهجتها وإشباع غرائزهم فيها ولم تمتد أبصارهم وأعمالهم وآمالهم إلى ما وراء هذه الحياة - أولئك - ليس لهم فى الآخرة مثوى إلا النار ، لأنهم استوفَوْا فى الدنيا ما تقتضيه صور أعمالهم ، وبقيت لهم أوزار عقائدهم ونياتهم السيئة ، وبطل ثواب ما صنعوه فى الدنيا ، لأنه لم يعمل لوجه الله تعالى ، فلا نفع ولا خير لهم فيه قال تعالى : «مَن كَانَ يُرِيدُ العَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا . وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا »[1] .

---

(١) سورة الإسراء الآيتين : ١٨ ، ١٩

(أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ
كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُولَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ
بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ
مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾)

المفردات :

(بَيِّنَةٍ) :حجة واضحة وبرهان ظاهر. (وَيَتْلُوهُ) : أى يتبعه .(شَاهِدٌ مِّنْهُ) : أى من الله تعالى يشهد بصحته . (إِمَامًا وَرَحْمَةً) :كتابًا يؤتم به فى الدين ورحمة على المنزل عليهم. (الْأَحْزَابِ) :أهل مكة ومن تحزب معهم . (مِرْيَةٍ مِّنْهُ) :شك من الوعيد بالنار أو من القرآن .

التفسير

١٧ ـ (أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً) : هذا بيان لحال المسلمين الذين يريدون بأعمالهم وجه الله تعالى إثر بيان حال من يريدون بأعمالهم الحياة الدنيا وحدها .

والمعنى : أيكون حال من كان على بينة وبرهان عقلى بما يؤمن به ويدعو الناس إليه ويتبعُ هذا النورَ الفطرى والبرهان العقلى شاهدٌ من الله تعالى يشهد على صحة ما اهتدى إليه العقل وهو القرآن الذى ثبت صدقه وأنه من عند الله ، ويؤيده شاهد آخر من قبله ، وهو التوراة كتاب موسى الذى جعله الله إمامًا يؤتم به فى الدين ، ورحمة لمن عمل به من بنى إسرائيل قبل نسخه بالقرآن فقد بشر بمجىء محمد صلى الله عليه وسلم وبالقرآن .

أفمن كان على هذا الحال ؟ يكون كمن يريد الحياة الدنيا وحدها محرومًا من الحياة الدينية الموصلة إلى السعادة فى الدار الآخرة ؟! لا يستويان .

(أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ) :أى أولئك الذين استناروا بالحجج العقلية والنقلية يؤمنون بالقرآن ويعملون به .

(وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ) : أى ومن لم يؤمن به من أهل مكة ومن تحزب معهم على محمد صلى الله عليه وسلم ممن يسير على غير هدى ، أو من أهل الكتاب ، فموعدهم ومآلهم النار يعذبون فيها ويردونها لا محالة بمقتضى وعيده تعالى لهم ولأمثالهم ، لقيام الحجة عليهم وعدم ما يثير الشكوك والجحود .

(فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ) :أى فلا تكن أيها العاقل المكلف فى شك من أن موعد أهل الكفر النار أو من أن القرآن من عند الله تعالى.

(إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ) :أى إن الوعيد بالنار . أو إنَّ القرآن هو الحق من الله الذى لا شك فيه ، فإنه : «لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ».[1] ولكن أكثر الناس لا يؤمنون ، لأنهم لا يمعنون النظر فيه ولا فى الأدلة التى تهدى إليه .

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۚ أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١٩﴾)

المفردات :

(وَمَنْ أَظْلَمُ): لا أحد أشد ظلما. (يُعْرَضُونَ) : أى يعرضون ذاتا وعملا .

(الْأَشْهَادُ) :جمع شاهد أو شهيد[2] وهو من يشهد عليهم. (لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ) :إبعاده لهم من رحمته . (يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ) : أى يمنعون غيرهم عن دين الله ، أو يُعْرِضُون هم عن دينه .

(وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا) : أى يريدونها معوجة .

(١) سورة فصلت الآية (٤٢)

(٢) ومن الوزن الأول صاحب وأصحاب ، ومن الوزن الثانى شريف وأشراف .

التفسير

١٨ - (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا) :

بعد أن بينت الآيات السابقة إصرار المشركين على الكفر بآيات الله ، جاءت هذه الآية وما بعدها لبيان طائفة أخرى من جرائمهم وجزائهم عليها .

والمعنى : لا أحد أشد ظلما ممن كذب على الله تعالى فنسب إليه ما لا يليق به كالشريك والولد ، أو وصفه بما لايجوز وصفه به، أو أخبر عنه بما لم يقله ، فهؤلاء أعظم الناس ظلما وأشدهم جرما .

(أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ) :أى أولئك الكاذبون يعرضون على ربهم ليحاسبهم على أعمالهم.

(وَيَقُولُ الأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ) : المراد من الأشهاد إما من شهدوا كفرهم ومعاصيهم التى اجترحوها فى الدنيا ، وهم الملائكة والنبيون وصالحو المؤمنين أو أهل الموقف .

والمعنى : ويقول هؤلاء الأشهاد مشيرين إليهم عند عرضهم على ربهم ، هؤلاء هم الذين افتروا على الله كذبا ، فنسبوا إليه ما لا يليق به .

(أَلَا لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ) :

يحتمل أن تكون هذه موجهة من الله تعالى إليهم ، أو من هؤلاء الأشهاد .

والمعنى : ألا بعداً وطرداً من رحمة الله لهؤلاء الظالمين لأنفسهم المعتدين على الحق .

١٩ - (الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا) :

الصد عن سبيل الله: يستعمل بمعنيين (أحدهما) : منع الناس عن دين الله. (والثانى) : الامتناعُ عنه ، وكلا هما يحصل من الكافرين ، فكما يكفرون فى أنفسهم . يحملون غيرهم على الكفر .

والمعنى : هم الذين يمنعون الناس ويصرفونهم عن دين الله الذى هو السبيل إلى معرفته ومرضاته كما صرفوا أنفسهم عنها ، ويريدون أن تكون هذه السبيل معوجة حسب أهوائهم.

(وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ) :

أى : وهم مع صدهم عن سبيل الله ينكرون البعث وما بعده ، من حساب وثواب وعقاب ويجحدونه ، وتكرار الضمير (هُمْ) : لتأكيد كفرهم بالآخرة ، والإيذان بعمق جذوره .

(أُولَـٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ يُضَـٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُولَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾)

المفردات :

(مُعْجِزِينَ فى الأَرْض) : مفلتين من عقاب الله . (أَوْلِياءَ) : نصراء .

(خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ) : أضاعوها بكفرهم . (وَضَلَّ عَنْهُم) : وغاب عنهم .

(مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ) : يدعون من ألوهية الأصنام وشفاعتها . (لَاجَرَمَ) : لابد .

التفسير

٢٠ - (أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِى الْأَرْضِ) :

أى : هؤلاء الذين يصدون الناس عن سبيل الله ويطلبون لها اعوجاجا وعدم استقامة - هؤلاء - لم يكونوا ناجين من عذاب الله فى الدنيا إذا ما أراد الانتقام منهم فى أى جزء من أجزاء الأرض ، فهم فى قبضته وملكه فلا يقدرون على الامتناع منه .

(وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ) :

أى وليس لهؤلاء المشركين من أنصار يتولون أمرهم ويمنعونهم من عذاب الله تعالى إذا ما أراده بهم .

(يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ) :

أى يزاد لهم العذاب مثلا أو مثلين أو أكثر بسبب صدهم الناس عن دين الله وإنكارهم البعث بعد الموت لأنهم ضلوا فى أنفسهم وأضلوا غيرهم .

(مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ) :

أى فقدوا القدرة على السمع المفيد والبصر النافع فإنهم أغلقوا نوافذ المعرفة عندهم فأصموا آذانهم عن سماع الحق بتدبر واعتبار ، فلهذا لم ينتفعوا بما يسمعون ، وهم مع ذلك ما كانوا يبصرون إبصار تأمل وعبرة فيما ينفعهم ويعود عليهم بالخير فى الدنيا والآخرة ويؤهلهم لرضا الله تعالى كما قال سبحانه : « فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ . كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ . فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ »(١) .

٢١ ـ (أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ) :

أى أولئك الذين أغلقوا آذانهم عن سماع الحق ، وحجبوا أبصارهم عن النظر فى آياته باعتبار وتأمل ـ أولئك ـ هم الذين جنوا على أنفسهم فأوقعوها فى الخسران بافترائهم الكذب على الله تعالى ، واشترائهم الضلالة بالهدى فضيعوا على أنفسهم حظوظها من رحمة الله تعالى ، وقد غاب عنهم فى الآخرة الآلهة الذين كانوا يزعمون أنهم شفعاء لهم ومنقذوهم من العذاب ، فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً .

٢٢ ـ (لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ) :

أى لابد أنهم فى الآخرة هم أشد الناس خسرانا ، لأنهم أضاعوا منازلهم فى الجنة واستبدلوا بها النار .

---

(١) سورة المدثر ، الآيات : ٤٩ ـ ٥١

(إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾)

المفردات :

(أَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِم) : خضعوا إلى الله ، واطمأنوا إلى عبادته وحسن جزائه .

التفسير

٢٣ - (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ) :

لما ذكر الله تعالى سوء أحوال الكفار فى الدنيا وخسرانهم فى الآخرة أتبعه بيان حسن حال المؤمنين فيهما .

والمعنى : إن الذين آمنوا بالله ورسله وبكل ما يجب الإيمان به ، وعملوا الصالحات من الواجبات والمسنونات ، وخشعوا لله واطمأنت قلوبهم بذكره . فجمعوا بين أعمال الجوارح وأعمال القلوب لتكون أعمالهم مقبولة عند الله تعالى .

(أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) : أى هؤلاء هم أهل الجنة وأصحابها دون من عداهم ، هم فيها خالدون لايبرحونها اختيارا ، ولايخرجهم منها أحد اضطراراً . كما قال تعالى : « وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ »[1] .

(مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾)

المفردات :

(مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ) : صفة الفريقين : فريق الكفار وفريق المؤمنين .

(الأَعْمَى) : فاقد البصر . (الأَصَمّ) : فاقد السمع . (الْبَصِير) : حاد البصر . (السَّمِيع) : قوى السمع .

(١) سورة الحجر ، من الآية (٤٨)

التفسير

٢٤ - (مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ ....) الآية .

تحدثت الآيات السابقة عن الكفار وإغراقهم فى الضلال ومصيرهم الرهيب، كما تحدثت عن المؤمنين وخشوعهم لله وثوابهم الجزيل، وجاءت هذه الآية لتوضيح الفرق الشاسع بين الفريقين .

والمعنى : مثل الكفار فى عدم الانتفاع بأبصارهم وأسماعهم، كمثل الأعمى الذى لايبصر والأصم الذى لايسمع أى كمثل الذى جمع بين العمى والصمم [1] فهو يتخبط فى الضلال كما قال تعالى : « وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّايَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّايُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّايَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ » [2] .

ومثل المؤمنين فى معرفة الله والتصديق بوحدانيته وكمالاته ، مثل الرجل الحاد البصر القوى السمع فكما أنه لايغيب عنه شىء مما يرى ويسمع ، فكذلك المؤمن لايغيب عن بصيرته وصفاء قلبه ، شىء مما يليق بكمالات الله تعالى فهو ينتفع بمدركاته العقلية ويميز بين الحق والباطل ، والصواب والخطأ ، فيتبع الخير ويبتعد عن الشر بعكس الأول .

(هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً) : الاستفهام هنا بمعنى النفى . أى لايستويان حالا وصفة .

(أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ) :

أى أتغفلون عن عدم استوائهما وما بينهما من الفرق فلا تعتبرون بالفرق بين هؤلاء - وهؤلاء ، كما قال تعالى : « لَايَسْتَوِى أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ » [3] . فما بالكم لاتدركون الفرق الشاسع بين الفريقين .

---

(١) قوله تعالى (كالأعمى والأصم) صفتان لموصوف واحد وكذلك (البصير والسميع) فهما من عطف الصفة على الصفة ، ومنه قول الشاعر : إلى الملك القرم وابن الهمام وليث الكتيبة فى المزدحم .

(٢) الأعراف ، الآية : ١٧٩ .

(٣) سورة الحشر ، الآية

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾)

المفـردات :

(نَذِيرٌ) : محذر من وقوع خطر . (مُبِينٌ) : موضح . (أَلِيمٍ) : شديد الإيلام .

التفسير

تحدثت الآيات السابقة عن فريق الكفار ومصيرهم الأليم، وفريق المؤمنين وثوابهم العظيم وفى الآيات التالية إلى آخر السورة يقص الله سبحانه وتعالى علينا أمثلة تاريخية واقعية لهذين الفريقين فى عصر كل رسول من الرسل بالترتيب الزمنى التاريخى ، وابتدأ بقصة نوح عليه السلام فقال :

٢٥ ـ (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ) :

استهلت الآية بتأكيد القصة بقوله : (وَلَقَدْ) لأن تاريخ نوح عليه السلام موغل فى القدم وفى التأكيد تنبيه على صدق القصة مع جذب انتباه السامعين إليها .

والمعنى : ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه قائلا لهم : إننى لكم محذر من غضب الله وعقابه إن بقيتم على كفركم ، موضح لكم مافيه خلاصكم ورضا ربكم .

٢٦ ـ (أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ) : أى أرسلنا نوحا إلى قومه ليقول لهم : لاتعبدوا إلها غير الله فإنه وحده الجدير بالعبادة والتقديس .

واستمال قلوبهم إليه بتأكيد إشفاقه عليهم وحرصه على إنقاذهم ، مما يتعرضون له من عقاب يوم رهيب شديد الإيلام ، إذا أصروا على الشرك والضلال فقال :

(إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ) :واليوم الأليم هو يوم القيامة الذى يجعل الولدان شيبا . أو يوم الهلاك والاستئصال فى الدنيا أو هما معًا ، وقدحل بهم عذاب يوم الطوفان «وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ» .

(فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا ج
وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ ج وَمَا نَرَىٰ
لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾)

المفردات :

(الْمَلَأُ) : الزعماء والقادة . (الْأَرَاذِلُ) : جمع أرذل وهو الخسيس الدنىء .

(نَظُنُّكُمْ) : نعتقد ونوقن ، مثل قوله تعالى : « الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ » .

(بَادِىَ الرَّأْىِ) : ما يبدو من الرأى للوهلة الأولى دون إمعان للنظر .

التفسير

٢٧ ـ (فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا) :

أى فتحدث زعماء قوم نوح الذين كذبوا رسالته قائلين له : ما أنت إلا بشر مشابه لنا فى البشرية لا ميزة لك علينا ، فكيف نستجيب لك ونتبعك ؟ وقد فاتهم أن البشر لايقدرون على الأخذ من الملائكة ولايستطيعون لقاءهم ، وأنهم لو جعلوا فى صورة البشر لالتبس الأمر على من أرسلوا إليهم ، كما فاتهم أن البشرية ليست على مستوى واحد ، فهى تعلو حتى تفوق الملائكة ، وتهبط حتى تصل إلى درك الشياطين .

ثم عللوا تكذيبهم بسبب ثان فقالوا :

(وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ الرَّأْىِ) : أى ولا نعلم أحدًا اتبعك من الزعماء والأشراف ، بل اتبعك الضعفاء والفقراء وقد اتبعوك دون روية أو تفكير ، لأنهم لايحسنون التدبر فى الأمور .

(وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ) : أى وما نعلم لك ولمن اتبعك مَزِيَّةً ولا فضلا فى أى شأن حتى نترك مكانتنا فى الرياسة والزعامة وننقاد لكم .

ثم ختموا اعتراضهم على رسالته بقولهم له :

(بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ) : أى بل نعتقد أنكم مفترون فيما زعمتموه لأنفسكم من فضل : والظن هنا بمعنى الاعتقاد كما جاء فى قوله تعالى : « قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ » (١) .

(قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ (٢٨) وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٩) وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣٠))

المفردات :

(أَرَأَيْتُمْ) : أخبرونى عن رأيكم .(بَيِّنَةٍ) : حجة قوية واضحة .(رَحْمَةً) : نعمة ، والمراد بها هنا نعمة النبوة والرسالة .(أَنُلْزِمُكُمُوهَا) : أنكرهكم على اتباعها .

(فَعُمِّيَتْ) : أخفيت عليكم فلم تدركوها .

التفسير

٢٨ - (قَالَ يَاقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَآتَانِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وأَنتُمْ لَهَا كَارِهُون) :

فى هذه الآية وما يليها يرد نوح عليه السلام على الأسباب التى استند إليها قومه فى تبرير كفرهم - ويرد فى رفق وأناة - ويجادلهم بالتى هى أحسن ، رجاء أن يفيئوا إلى الصواب .

(١) سورة البقرة ، من الآية : ٢٤٩

والمعنى : ياقوم إننى لا أزعم أننى أمتاز عليكم فإننى بشر مثلكم ، ولكن أخبرونى عن رأيكم فيما أعرضه عليكم : إن الله سبحانه قد هدانى إليه فآمنت به إيمانا راسخا ثابتا معتمدا على الحجة والبينة الظاهرة ، وتفضل على بنعمة خصنى بها من عنده وهى الرسالة ، وأمرنى بإبلاغها إليكم تفضلا منه عليكم . وقد بلغت الرسالة وأديت الأمانة فخفى أمرها عليكم حين بادرتم إلى تكذيبها دون تدبر أو تأمل . فأخبرونى ماذا أفعل لكم أنا ومن معى من المؤمنين بعد ذلك ؟ أنرغمكم على العمل بشريعة الله التى رحمكم بها وأنتم لها كارهون .

وعاد نوح فذكرهم بأنهم قومه قائلا :

٢٩ ـ (وَيَاقَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللهِ) : أى ياقوم إننى لا أريد منكم مالا على أداء هذه الرسالة ، فما أجرى إلا على الله وحده فما بالكم ترفضون مادعوتكم إليه من الحق ، وهذا الذى قاله نوح لقومه من الأسس الهامة التى تقوم عليها دعوات المرسلين ، وينبغى أن تكون قدوة لجميع الدعاة والمصلحين ، فإن الدعوة للإصلاح إذا تجردت عن المطامع الذاتية ، تكون أدعى للاستجابة إليها ، واستمالة القلوب نحوها وفى ذلك يقول الله تعالى : « اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ »[1] .

(وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ) : هذا جواب عما طلبوه منه من طرد الفقراء بقولهم : « وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ » . كأنهم يوحون إليه بطردهم والتبرؤ منهم .

والمعنى : لست بطارد المؤمنين لفقرهم كما أردتم ، فإنهم سيلقون الله فينصفهم منى إذا ظلمتهم وأبعدتهم عنى إرضاء لكم ، ولن أغضب الله بازدرائى لهم كما تحبون وليس الأمر فى شرع الله دائما على الصور والأجسام والثياب ، بل مرده إلى طمأنينة القلوب ونظافة الصدور .

وفى هذا المعنى يقول النبى صلى الله عليه وسلم : « رُبَّ أَشْعَثَ مَدْفُوعٍ بِالْأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّه »[2] .

(١) سورة يس : الآية ٢١ (٢) حديث شريف رواه مسلم وأحمد .

(وَلَكِنِّى أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ) : أى لا تعرفون أقدار هؤلاء المؤمنين حين حكمتم بأنهم أراذل ، ولن أكون مثلكم فى الخطأ وسوء التقدير .

ويجوز أن يكون المعنى : أراكم قوما بكم جهالة وحمق ، نفعكم إلى التعالى على هؤلاء المؤمنين والسخرية بهم ، والازدراء والامتهان لهم .

٣٠ - (وَيَاقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ اللهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) :

ويقول لهم مرة أخرى : وياقوم من يمنعنى من انتقام الله إن طردت هؤلاء الفقراء الذين جعلتموهم أراذلكم ، وهم على ماهم عليه من الإيمان والاستقامة ، أتستمرون على ماأنتم عليه من الجهل والحمق ، فلا تتذكرون ولا تتدبرون أن قيمة الناس عند الله ليست فى مظاهرهم وثرائهم ، بل فى صفاء نفوسهم وطواعيتهم للحق ، واستقامتهم على جادّة الصدق ، فكيف أطردهم وهم على المنهج المستقيم ؟

(وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾)

المفردات :

(خَزَائِن) : جمع خزانة بكسر الخاء وهى موضع المال أو المتاع ، والمقصود بخزائن الله ما عنده من خير جزيل .

(الْغَيْبَ) : المراد من الغيب ما غاب وخفى عن الإنسان من العوالم المجهولة ، أو أحداث المستقبل . (تَزْدَرِىٓ) تحتقر .

التفسير

٣١ - (وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَائِنُ اللهِ) :

بعد أن جادلهم في ادعاءاتهم وفنّد مزاعمهم ، أعلن لهم أنه حين يبلغهم رسالة ربه لا يدعى أنه يملك ما عند الله من خير ورزق وفير ، حتى يستدلوا بعدمه عنده على كذبه بقولهم له ولِمَنْ آمن معه : « وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ » . فإن النبوة لا تنال بالأسباب الدنيوية ، ودعواها بمعزل عن ادعاء المال والجاه ، ولا تفتقر إليهما .

(وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ) :

أى لا أقول لكم حين أنذركم بقولى : « إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ » . « إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ » : لا أقول لكم إنى أعلم الغيب ، حتى تسارعوا إلى الإنكار والاستبعاد .

(وَلَا أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ) : أى لا أزعم أنى ملك حين دعوتكم إلى دين الله ، حتى تردُّوا دعوتى بقولكم : « مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا » . على حين أن البشرية لا تمنع من النبوة ، بل هى من مقتضياتها .

(وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِى أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللهُ خَيْرًا) :

أى ولا أقول فى شأن المؤمنين الفقراء الذين تحتقرهم أعينكم . لا أقول فى حقهم ما قلتموه أنتم من أنه تعالى لن يؤتيهم خيرا لرثاثة حالهم ، فإن الله لا ينظر إلى الصور والثياب ، ولكن ينظر إلى القلوب ، فعسى الله أن يمنحهم الخير فى الدنيا والآخرة .

(اللهُ أَعْلَمُ بِمَا فِى أَنفُسِهِمْ إِنِّى إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ) :

أى أن الله تعالى أعلم بما انطوت عليه نفوسهم ، فكيف أحكم عليهم بأنهم لن ينالوا من الله خيرا ، إنى لو قلت هذا لكنت من الظالمين لهم بنقص مرتبتهم وغمط حقوقهم ، أو لكنت من الظالمين لأنفسهم بالحكم فى شىء غيبى لا سبيل لى إلى معرفته فإن أسرار القلوب بين يدى علام الغيوب .

(قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾)

المفردات :

(جَادَلْتَنَا) : الجدال ؛ مقارعة الحجة بالحجة طلبا لتغليب رأى على رأى آخر . ويطلق على شدَّة المخاصمة والقدرة على النقاش .

(بِمُعْجِزِينَ) : بسابقين ، والمراد أنهم لا يفلتون من عذاب الله .

(أن يُغْوِيَكُمْ) : أى يترككم فى غيِّكم ويتخلَّى عن هدايتكم ، أو يُوقعكم فى الغىِّ وهو العذاب ، ومنه قوله تعالى : « فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا » . أى هلاكا وعذابا .

التفسير

أفحم نوح قومه ولم يجدوا مجالا للردِّ عليه ، فتحدوه بأن ينفِّذ ما وعدهم به من العذاب وذلك ما حكاه الله بقوله :

٣٢ ـ (قَالُوا يَانُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إن كُنتَ مِنَ الصَّادقِينَ) :

المعنى : قالوا يانوح قد بالغت فى مناقشتنا ولسنا مقتنعين برسالتك ، ولا بما قدمته عليها من الأدلة والبراهين ، ونحن مصرّون على تكذيبك فيما تدعيه من ثواب المؤمنين وعقاب الكفار ، فأتنا بما أوعدتنا من العذاب الأليم إن كنت صادقا فيما تقول .

٣٣ ـ (قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ) :

قال نوح مجيبا لهم بما يتفق مع بشريته التى أعلنها لهم من قبل ، وبما يتفق مع رسالته عن الله : قال لهم : ما يأتيكم بالعذاب الموعود إلا الله تعالى إن شاء إنزاله بكم ، وليس أمره بيدى حتى تطلبوه منى ، ولن تستطيعوا الإفلات منه حين يريد نزوله بكم .

٣٤ ـ (وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ) :

أى ولا ينفعكم ما أبذله لكم من نصح أردت بذله لكم ، إن كان الله يريد أن يبقيكم فى غيِّكم الذى أصررتم عليه ، ثم بيَّن أن مردهم إلى ربهم صاحب الأمر فيهم فقال : (هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) : أى أنه تعالى هو مالك أمرهم وحده ، وإليه مرجعهم بعد الموت للحساب والجزاء فأمر هدايتهم وجزائهم إليه وحده وليس لى من ذلك شىء .

(أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾)

المفـردات :

(افْتَرَاهُ) : اخترعه من نفسه ولم ينزله الله عليه

(إِجْرَامِي) : ارتكابى إثما كبيرًا .

التفسير

٣٥ ـ (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ) :

لمَّا عجز قوم نوح عن محاجته زعموا أن كلامه كله كذب وادعاء ، فأمره الله أن يبرئ نفسه مما يقولون ، ويحمِّلهم عاقبة افترائهم عليه .

والمعنى : بل أيقول قوم نوح بعد عجزهم عن الردّ عليه ـ إنه اختلق هذا الدِّين الذى يزعم أنه من عند الله .

(قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ) :

أى قل لهم يانوح إن كنت قد اختلقت ماأبلغتكم إيّاه من رسالة الله ، فعلىَّ إثم إجرامى بالافتراء على الله ، وما يترتب عليه من عقاب يستحقه كل من افترى عليه الكذب ، فكيف أفترى على الله الكذب وأنا المسئول عنه دون غيرى ، وبما أننى صادق فأنا برىءٌ من إجرامكم وكفركم .

وهذا شبيه بقوله ـ تعالى ـ للرسول صلى الله عليه وسلم : « وإن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ »[1] . وهنا يتجلى الإنصاف الكامل .

(وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾)

المفردات :

(فَلَا تَبْتَئِسْ) : لا تحزن ولا تتألم .

(الْفُلْكَ) : السفينة الواحدة والجمع .

(بِأَعْيُنِنَا) : تحت رعايتنا وتوجيهنا .

التفسير

نصح نوح ـ عليه السلام ـ قومه بكل الوسائل ودعاهم إلى الإيمان بمختلف الأساليب العقلية فى رفق ولين ، ولكنهم أصرُّوا على عنادهم وركبوا رءُوسهم ، ورموه بالكذب

(١) سورة يونس الآية : ٤١

على الله كما تقدم بيانه ، وفيما يلى من الآيات باقى قصة نوح مع قومه وبيان نهايتهم الأليمة .

٣٦ - (وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ) :

أى : وأوحى الله إلى نوح أنه لن يستجيب لدعوتك أحد من قومك سوى الذين آمنوا بك من قبلُ ، فلا مجال لبذل النصيحة والدعوة إلى الهداية مع قوم مصرِّين على الكفر تلك الدهور الطويلة .

(فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ) :

أى فلا تحزن عليهم ولايَضِقْ صدرك بكفرهم ومكرهم ، وانغماسهم فى الآثام والذنوب .

٣٧ - (وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا) :

أى وقم بعمل السفينة طبقًا لوحينا الذى بينا لك فيه كيفية صنعها ، وذلك تحت رعايتنا ، وبتوجيه وسند منَّا لتؤدى الغرض المقصود منها .

(وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ) :

ظاهر الآية أن نوحا عليه السلام شفع فى قومه أو كان بصدد أن يشفع فيهم فنهى عن ذلك ، وسيأتى فى سورة نوح أنه - صلى الله عليه وسلم - طلب من ربِّه أن يُهلكهم بقوله : « رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا »[1] . وتوفيقا بين هذه الآية وبين ماجاء هنا نقول : إنه سبحانه يعلم شفقة نوح بقومه وطول إقامته معهم ، وأنه قد يدعو ربه أن يتأنى معهم وأن لا يغرقهم أو كان قد دعاه فعلا ، فلهذا نبهه هنا إلى أن لايطلب منه ذلك مستقبلا ، فقضاء الله فيهم لا رجعة فيه بشفاعته ، فلا يطلب منه مالا سبيل إلى إجابته .

أما ما سيأتى فى سورة نوح من قوله : « رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا » . فقد صدر منه بعد يأسه تماما من إيمان قومه .

والمعنى : ولا تخاطبنى فى تأجيل تعذيب هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم ونبيهم ، إنهم مغرقون ولابُدَّ ، فلا مجال للرحمة بهم ولا مفرَّ من إهلاكهم .

---

(١) سورة نوح ، الآية : ٢٦

(وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾)

المفردات :

(مَلَأٌ) : جماعة من الأشراف . (سَخِرُوا مِنْهُ) : اتخذوه هدفا للاستهزاء ومجالا للضحك . (يُخْزِيهِ) : يذلّه ويفضحه .

التفسير

٣٨ – (وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ) :

نفذ نوح أمر ربه . وظل يباشر صناعة السفينة وكلما رآه جماعة من أشراف قومه أثناء صنعتها واجهوه بالاستهزاء والسخرية منه . فقد عهدوه داعيا إلى توحيد الله وعبادته . فإذا هو قد انصرف عن الدعوة واشتغل بقطع الأشجار وتهيئة الألواح وضم بعضها إلى بعض ولم يدركوا السر فى هذا التغيير .

(قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ) : لمَّا رأى نوح قومه يسخرون من اشتغاله ببناء السفينة . هدَّدهم بقوله إن تسخروا منا اليوم . فإننا عن قريب نجيب على سخريتكم بالفرح بهلاككم . وتخليص الأرض من شروركم وجهلكم فى حق ربكم وحقِّ أنفسكم .

٣٩ – (فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ) .

أى إنكم تسخرون منا اليوم وسوف تعلمون غدًا من هو أهل للسخرية والاستهزاء حينما يفجؤكم عقاب من الله يخزيكم فى الدنيا ، وحينما يحل بكم عذاب خالد يوم القيامة وبئس المصير .

(حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾)

المفردات :

(فَارَ) : فاض وارتفع بقوة واشتد اضطرابه . (التَّنُّورُ) : الفرن .

(سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ) : حق عليه قضاءُ الله .

التفسير

٤٠ - (حَتَّى إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ) : ظل نوح عليه السلام يصنع السفينة ويسمع سخرية الساخرين واستهزاءَ المستهزئين من قومه ، حتى إذا أتم صنعها وحل قضاءُ الله وتدفقت ينابيع الماء من مكان غير مألوف وهو جوف الفرن ، وهطل المطر من السماء مدرارًا ، كما قال تعالى: «فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّماءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ . وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ »[1] .

حتى إذا حدث هذا كله : (قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ) : أى قلنا لنوح عليه السلام احمل فى سفينتك من كل صنف من الحيوان زوجين اثنين ذكرًا وأنثى حتى لاتنقرض الأنواع ، أما الأنواع التى أمره الله بحملها معه فلم نعلم أنه ورد فى تحديدها نص صريح يوثق به .

(وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ) : أى واحمل معك فى السفينة أهلك جميعًا إلا من حقَّ عليه قضاءُ الله بالهلاك مع الكفار لأنه منهم ، ومن سبق عليه القول من أهله هم : ابنه وزوجته كما ورد فى أكثر من موضع فى القرآن الكريم .

(وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ) : أى واحمل معك الذين استجابوا لدعوتك وآمنوا برسالتك وهم عدد قليل .

(١) سورة القمر ، الآيتين : ١١ ، ١٢

(﴿ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾)

المفردات :

(ارْكَبُوا فِيهَا) : أى اركبوا مستقرين فيها . (مَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا) : أى جريها فى الماء ، وإرساؤها أى إثباتها فى مرساها ، ويجوز أن يكون المراد منهما مكان أو زمان جريها وإرسائها .

التفسير

٤١ - (وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللهِ مَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا) :

بعد أن بيّنت الآية السابقة أن الله -تعالى- أمر نوحا عليه السّلام أن يحمل فى السفينة زوجين اثنين من كل الحيوانات المنتفَع بها ، وأن يحمل فيها أهلَه إلا من سبق عليه قول الله بالغرق بالطوفان، جاءت هذه الآية لتبيِّن أنه نفَّذ ما أمره به ، وأوصى أهله أن يذكروا اسمه - تعالى - عند ركوبهم فيها على النحو الذى سنشرحه ، والركوب كما قال العلامة أبو السعود : هو العلو على شىءٍ له حركة ، إمَّا إرادية كالحيوان أو قسرية كالسفينة والعجلة ونحوهما ، فإذا استعمل فى الأول لم يذكر معه لفظ (فى) كما فى قوله تعالى : « وَالْخَيْلَ وَالبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا »[١] .

وإذا استعمل فى الثانى لوحظت الظرفية فذكر معه لفظ (فى) كما هنا ، وكما فى قوله تعالى : « حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا »[٢] . وقوله : « فَإِذَا رَكِبُوا فِي الفُلْكِ » . هذه خلاصة ما أسهب به فى هذا الموضوع ، وقال البيضاوى : (وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا) : أى صِيرُوا فيها وجعل ذلك ركوبا ؛ لأنها فى الماء كالمركوب فى الأرض : ا هـ .

والمعنى : وقال نوح - عليه السلام - لأهله والمؤمنين الذين أمره الله بحملهم معه : اركبوا فى السفينة قائلين بسم الله جريها فوق الماء المتلاطم الأمواج ، وبين

(١) سورة النحل ، من الآية : ٨ (٢) سورة الكهف ، من الآية : ٧١

الزوابع والعواصف وتحت سُحُبٍ مفتَّحة الأَبواب بماءٍ منهمر ، وبسم الله إرساؤُها وإيقافها عن الجرى عند مرْساها الذى شاء الله أَن يوقفها ويثبتها عنده .

ويجوز أَن يكون نوح بعد أَن أَمرهم بركوبها ، أَخبرهم بأَن جريها وإرساءها بإذن الله وحمايته حتَّى لا يخافوا من ركوبها فى هذا الفزع الأَكبر ، فكأَنه قال لهم : اركبوا فى السفينة بإذن الله جريها وإيقافها لا بإذنى فلا تخافوا من الغرق ؛ ويرشح هذا المعنى ختم الآية بقوله سبحانه :

(إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ) :أَى إن ربى لعظيم الغفران لذنوب المؤمنين، وواسعٌ الرحمة والرأفة بهم ، ومن كان كذلك فهو الكفيل بنجاتهم من كل خطر يُحيط بهم .

(وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَـٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾)

المفــردات :

(فِى مَعْزِلٍ) : أَى فى مكان عزل نفسه فيه عن أَهله .

(يَعْصِمُنِى مِنَ الْمَاءِ) : يمنعنى ويحمينى منه .

التفســير

٤٢ - (وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَالْجِبَالِ) :

هذا الكلام مرتبط بمقدر مفهوم من الآية السابقة ،أَى فركبوا فى السفينة (بِسْمِ اللهِ) الخ ؛ وهى تجرى بهم بعد ركوبهم ، فى موج مرتفع كالجبال ، لشدة العواصف والرياح التى يتأَثر بها الموج ويشتد ارتفاعه .

(وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ ...) الآية .

فى هذه الآية عدة أسئلة :

(أحدها) : كيف ينادى نوح ابنه ليركب معه فى السفينة مع أنه نهى عن ذلك بقوله سبحانه : « وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ » ؟ ومن سبق عليه قول الله هم الذين قضى بإغراقهم لكفرهم ؟ وقد أجيب عن ذلك : بأنه لم يقطع الأمل فى إيمانه إذ لم يكن لديه علم بأنه مصرٌ على الكفر وأنه من المغرقين ، إلا بعد أن أخبره الله بأنه ليس من أهله المؤمنين وبأنه من المغرقين ، ويدل لذلك قوله : « ارْكَب مَّعَنَا وَلاَ تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ » . فكأنه يقول له اركب معنا نحن المؤمنين وكن مؤمنا فى جملتنا ، ولا تكن باقيا على الكفر مع الكافرين حتى لا تغرق بسبب كفرك وعزلتك معهم ، وقيل : إنه كان ينافق أباه فيظهر له الإيمان ويبطن الكفر فلذلك دعاه ليركب مع المؤمنين ظانًّا أنه مؤمن ، والرأى الأول أظهر .

(وثانى هذه الأسئلة) :

ما المراد بكونه (وَكَانَ فى مَعْزِلٍ) ؟ والجواب : أنه كان فى مكان عزل فيه نفسه عن أبيه وعن المؤمنين وقتما كانوا على الشاطئ يستعدون لركوب السفينة ، ولكنه كان بحيث يسمع النداء ، فلذلك ناداه أبوه بترك العزلة مع الكافرين ، والانضمام إليهم فى الإيمان وركوب السفينة معهم .

(والسؤال الثالث) :

ظاهر النص الكريم ، أن نوحا نادى ابنه وكانت السفينة تجرى بهم فى موج كالجبال والمعقول أنه يناديه قبل أن تبحر بهم ؟ والجواب : أن هذا حكاية لما حدث منه لولده قبل إبحار السفينة ، وليس فى النص ما يقتضى تأخره إلى مابعد جريانها فكأنه قيل : وهى تجرى بهم فى موج كالجبال ، وكان نوح قد نادى ولده ليترك مَعْزِلَهُ ، ويؤمن ويركب معهم ، لينجو من الغرق فى طوفان أمواجه كالجبال ، فأبى وقال : سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء الخ .

والمعنى الإجمالى للآية : فركبوا فى السفينة بإذن الله جريها وإرساؤها ، وهى تجرى بهم فى موج كالجبال ، وكان نوح قبل إبحارها قد نادى ابنه وكان فى مَعزل عنه وعمَّن

آمن معه ، قائلا له بحكم الشفقة الدينية والأبوية : يابنى اركب معنا نحن المؤمنين ودع ما أنت عليه من الكفر ، لتنجو من الغرق ، ولا تكن منعزلا عنا مع الكافرين ، فإنهم سيغرقون ويهلكون .

٤٣ـ (قَالَ سَآوِى إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَاعَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ) :

توهم هذا الولد المفتون أنه يستطيع أن ينجو من الغرق باللجوء إلى جبل مرتفع ، كما يحدث فى بعض المُلمَّات من اللجوء إلى أسباب النجاة العادية ، فلهذا رفض دعوة أبيه وقال له : سألجأُ إلى جبل مرتفع يحمينى من الماء ويمنعنى تسلُّقُه من الغرق بالطوفان ، فردَّ عليه أبوه قائلًا :

(لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ) : أى ليس هذا الذى نزل بالناس ماءً عاديا يُتَّقَى فيضانه بارتقاء الجبال ، بل هو عذاب الله وعقابه للكافرين فلا يُنْجِى منه إلا الله الذى رحم عباده المؤمنين بإركابهم سفينة النجاة فدع عنك هذه الغفلة ، وآمن بربك واركب مع المؤمنين سفينة النجاة ، لتنجو معهم ، ولكنه لم يستمع إلى نصيحة أبيه .

(وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ) .

أى قام الموج حائلا بين نوح وابنه فاجتذبه إليه ، وانقطعت صلة التفاوض بينهما ، وكان هذا الولد من جملة الذين أغرقهم الله بالطوفان من الكفار أمثاله .

(وَقِيلَ يَـٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَـٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾)

المفردات :

(وَيَاسَمَاءُ أَقْلِعِى) : وياسماءُ أمسكى عن المطر ، والسماءُ هنا : السحاب .

(وَغِيضَ المَاءُ) : أى نقص . (وَاسْتَوَتْ عَلَى الجُودِىِّ) : واستقرت السفينة على جبلٍ يُسمَّى بهذا الاسم ، واختلف فى موقعه على ما سنبينه فى الشرح .

(بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) : أى هلاكا لهم ، يقال : بَعُدَ بُعْدًا وَبَعَدًا ، إذا بَعُدَ بحيث لا يرجى رجوعه ، ثم استُعير للهلاك .

التفسير

٤٤ - (وَقِيلَ يَاأَرْضُ ابْلَعِي مَآءَكِ وَيَاسَمَاءُ أَقْلِعِي) .

بعد ما بيَّنت الآية السابقة شدة الطوفان وإغراقه لأهل الأرض ، وأنه لم يعصم منه إلا من رحمه الله وهم أهل السفينة التى صنعها لهم نوح ، جاءت هذه الآية لتبيِّن انتهاء الطوفان بأمر الله ، بعدما أهلك الله به الظالمين .

والمعنى : أنه -تعالى- بعد إهلاكه الظالمين بالطوفان ، أمر الأرض أن تكف عن الفوران وأن تبتلع ما على ظهرها من الماء الذى جاء به الطوفان ، دون ما فيها من مياه البحار والمحيطات ، وأمر السماء أن تكفَّ عن المطر ، وتقلع عن إرساله مدرارًا ، وظاهر الآية : أن الأرض والسماء نوديا حقيقة ، وأنه -تعالى- خلق لهما إدراكا جعلهما أهلا لتقبُّل التكليف ، وَلا يبعد ذلك على قدرة الله تعالى ، ويشهد له قوله تعالى : « وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ »[1] .

ومن المفسِّرين من جعل ذلك تمثيلا لكمال قدرة الله عليهما ، وتمام انقيادهما لما يشاؤه فيهما ، قال الإمام البيضاوى : نوديا بما ينادى به أُولو العلم ، وأُمرا بما يؤمرون به تمثيلا لكمال قدرته ، وانقيادهما لما يشاءُ تكوينه فيهما ، بالآمر المطاع الذى يأمر المنقاد لحكمه ، المبادر إلى امتثال أمره ، مهابة من عظمته ، وخشية من أليم عقابه ، انتهى .

(وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ) :

ونقص الماء حتَّى غاب فى الأرض بعد ما صدر أمر الله للسماء بالإقلاع والأرض بالابتلاع وتنفيذهما مشيئته فيهما ، وأُنجز الأمر الذى جاء الطوفان من أجله ، وهو هلاك أولئك

(١) سورة الأنبياء ، من الآية : ٧٩

الظالمين من قوم نوح ، وتطهير الأرض منهم ، لينشأ جيل جديد من البشر على توحيد الله وطاعته ، واستقرت السفينة بعد أن جف ظاهر الأرض ، على جبل اسمه الجودى .

وقد اختلف الناس فى بيان موقعه؛ فمنهم من قال : إنه بالموصل ، ومنهم من قال : بالشام ومنهم من قال بآمل - بمدّ الهمز وضمّ الميم - ومنذ عدة سنين نشر بالصحف، أنهم وجدوا ألواحا طويلة على جبل أرارت تشبه ألواح سفينة كبرى ، وقيل : إنها بقايا سفينة نوح ، والله - تعالى - أعلم بالحقيقة .

(وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) :

إذا قلت : بعدا لفلان ، فأنت تدعو عليه ، فهو خاص بدعاء السوء ، وكثيرا ما يستعار للدعاء بالهلاك كما هنا .

والمعنى : وقيل من جهة الله تعالى : هلاكا لقوم نوح لكونهم ظالمين أشد الظلم. ويقول العلامة البيضاوى ، فى وصف بلاغة الآية وفصاحتها ما يلى :

«والآية فى غاية الفصاحة لفخامة لفظها ، وحسن نظمها ، والدلالة على كنه الحال ، مع الإيجاز الخالى عن الإخلال ، وفى إيراد الإخبار على البناء للمفعول دلالة على تعظيم الفاعل وأنه متعين فى نفسه ، مستغنٍ عن ذكره ، إذ لا يذهب الوهم إلى غيره ، للعلم بأن مثل هذه الأفعال لا يقدر عليها سوى الواحد القهار» . انتهى .

وقال الألوسى : هذه الآية بلغت من مراتب الإعجاز أقاصيها ، وجمعت من المحاسن ما يضيق عنه نطاق البيان ، إلى آخر ما قال .

هل شمل الطوفان جميع الأرض

إذا قرأنا قصة الطوفان فى سور القرآن التى تحدثت عنه ، نجد فيها أن الله تعالى جعله عقوبة لقوم نوح لغلوهم فى الكفر ، وإصرارهم عليه أحقابا ودهورا ، وقوم نوح كانوا فى إقليم من أقاليم الأرض يعلمه الله ، ولم يكونوا منتشرين فى أرجائها كلها ، فهل يبعثنا هذا على القول بأن الطوفان لم يعم الأرض جميعا ، بل كان قاصرًا على المنطقة التى كان يوجد فيها قوم نوح لعقابهم ، وهل يشهد لصحة هذا الاستنتاج أن الله تعالى قال هنا فى آخر القصة : (وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) .كما يشهد له أن نوحا كان قريبا

من جدّه آدم-عليهما السلام - فالبشرية فى عهده كانت محصورة فى حيِّز ضيق من الأرض أم أن الطوفان مع كونه عقوبة لقوم نوح ، فإنه كان عاما لجميع أنحاء الأرض لحِكَمٍ يختص بعلمها الحكيم الخبير ، ولم نجد لهذا السؤال جوابا حاسما يحمل على اعتقاد عمومه أو خصوصه يقينا ، والذى يجب اعتقاده هو عموم الطوفان للكافرين لقوله تعالى: «رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ».وقوله : «لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ».

أما عمومه لجميع بقاع الأرض ، فليس لدينا ما ينفيه على البت والقطع ، لا حتمال النصوص لهذا العموم ، ولأنه قد وجدت بعض الأصداف والأسماك المتحجرة فى أعالى الجبال ، لأن هذه الأشياء لا تتكون إلا فى البحر ، فلا بد أن تكون هذه مخلفات طوفان عمَّ الأرض، وارتفع إلى أعالى الجبال . .

سؤال

قد يقول قائل :ما ذنب الصغار الذين لم يبلغوا حد التكليف حتى يهلكهم الله بالطوفان ؟ والجواب : أنه مجرد سبب لموتهم ، وليس موتهم به عقوبة لهم ، وأى محذور فى إماتة من لا ذنب له ؟ وفى كل وقت يميت الله من هؤلاء الصغار بأسباب وبغيرها عددا لا يحصى ، فالخلق عباده ، والملك له-وحده-يفعل فيه ما يشاء حسب حكمته العالية ، فهو الحكيم الخبير .

(وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾)

المفردات :

(إِنَّ ابْنِى مِنْ أَهْلِى) : أى بعض أهلى الذين وعدتنى بنجاتهم .

(لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ) : أى لا يستحق الانتساب إليهم ،لانقطاع الولاية بين المؤمن والكافر . (إِنَّه عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ) : أى إنه صاحب عمل فاسد ، فلا ينسب إلى أهلك الذين سبق الوعد بإنجائهم . (إِنِّى أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الجَاهِلِينَ) : إنى أحذرك أن تكون من جملة الجاهلين بسؤالك نجاة ولدك الكافر .

التفسير

٤٥ - (وَنَادَىٰ نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِى مِنْ أَهْلِى .....) الآية .

تقدم فى الآيات السابقة بيان أن نوحا دعا ولده هذا إلى أن يركب معه السفينة ، ولا يتخلف مع الكافرين حتى لا يهلك بهلاكهم ، وأنه أجابه بأنه سيأوى إلى جبل يعصمه من الماء ، وأن أباه أفهمه أنه لا عاصم من الغرق : إلا الله الذى رحم المؤمنين ركّاب السفينة ، وأن الموج حال بينهما فانقطع الحديث ، وكان هذا الولد من المغرقين. وظاهر هذه الآية أن نوحا أراد بقوله : (إِنَّ ابْنِى مِنْ أَهْلِى) الخ أن يطلب من الله تعالى نجاته من الغرق بالطوفان ، فكيف يطلب ذلك بعد غرق ولده ، لأنه من الكافرين المغرقين .

ويجاب عن ذلك ، بأن نوحا لم يكن رآه يغرق ، وأنه ربما ظنّ أنه نجا بالتجوء إلى جبل ، أو أنّ كفره لم يكن مُؤكدًا لديه ، ولذا قال : (رَبِّ إِنَّ ابْنِى مِنْ أَهْلِى) . ولم يكن يظن أنه ممن سبق عليه القول بالغرق فى قوله - سبحانه - : « إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ » . وأجيب بغير ذلك وحسبنا ما ذكرناه .

والمعنى : ودعا نوح ربه قائلا : يارب إن ابنى من أهلى ، وقد وعدت أن تنجيهم فما حاله ؟ أو فما له لم ينج ؟ ويجوز أن يكون هذا النداء قبل غرقه- كما قال البيضاوى[1] .

(وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الحَاكِمِينَ) :

أى وإن كل وعد يصدر عنك يارب هو الحق فلا يتطرق إليه الخُلْف ، وقد وعدت أن تنجى أهلى ، وأنت أعدل الحاكمين ، فلعلك ياربى نجيته ، و قضيت بنجاته .

(١) وتفصيلا لما أجمله البيضاوى نقول : الواو فى قوله تعالى:(ونادى نوح ربه) الخ لمجرد العطف لا تفيد ترتيبا ولا تعقيبا ، وإنما أخر إلى تمام قصة السفينة ونجاتها بركابها المؤمنين ، تقديما للأهم على المهم كما قدم فى قصة البقرة أمر ذبحها واختلافهم فى صفاتها ، على ذكر السبب فيه وهو اختلافهم فيمن قتل القتيل ، فراجعها هناك لتعرف سر تقديم العجز على الصدر .

٤٦ - (قَالَ يَانُوحُ إِنَّه لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ) :

قال الله لنوح فى إجابته على سؤاله : يانوح إن ابنك هذا ليس من أهلك الذين وعدتك بإنجائهم من الطوفان ، لأن عمله لاصلاح فيه ، فهو الفساد بعينه ، فخرج بذلك عن كونه من أهلك ، لانقطاع الولاية بين المؤمن والكافر ، ولأن أساس نجاة أهلك الإيمان دون النسب .

(فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ) :

أى إذا كنت قد علمت شأن ولدك الذى ظننت أنه أهل للنجاة ، وتبيّن لك أنه أهل للهلاك لكفره ، فلا تسألنى فيه ولا فى غيره بعد ذلك مطلبا لا تعلم يقينا أنه صواب وموافق للحكمة .

(إِنِّى أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ) :

إنِّى أحذرك وأنهاك عن أن تكون من جملة الجاهلين ، بسبب سؤالك إيانا ما لا تعلم يقينا أنه صواب وموافق للحكمة لدينا .

(قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَـٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَـٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَـٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾)

المفـردات :

(أَعُوذُ بِكَ) : ألتجىء إليك وأحتمى بك . (بِسَلَامٍ) : بسلامة وأمن .

(وبَرَكَاتٍ) : ونعم ثابتة .

التفسير

٤٧ - (قَالَ رَبِّ إِنِّى أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِ عِلْمٌ) :

تحكى هذه الآية توبة نوح عمَّا سأله فى شأن ولده ، ولجوءه إلى الله أن يعصمه من أن يعود إلى مثل ما طلبه بشأنه .

والمعنى : قال نوح بعد ما وعظه الله وذكّره : يارب إنى ألتجئُ إليك لتعصمنى من أن أطلب منك مستقبلا مطلبا لا أعلم يقينا أن حصوله مقتضى الحكمة أو أنه صواب. وهذه الاستعاذة التى صدرت من نوح عليه السلام ، هى توبته ممَّا حدث منه ، وهى أبلغ فى التوبة من أن يقول :أتوبُ إليك أن أسألك ،لما فيها من الدلالة على أن ذلك أمر لا قدرة للعبد عليه إلا بالاستعانة بالله واللجوء إلى حمايته وعصمته .

(وإلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِى أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ) :

وإن لم تغفر لى يارب ما طلبته فى شأن ولدى حين قلتُ : « رَبِّ إِنَّ ابْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ » فقد سألتُك بذلك نجاته ، وظننتُ أنه داخل فى وعدك الحق ولم أكن عالما بحقيقة أمره ،وأنسانى ذلك شكر إنعامك بالنجاة علينا ، وإهلاك أعدائنا إن لم تغفر لىّ ذلك ، وترحمنى بقبول توبتى ، أكن من الذين خسروا أعمالهم وأضاعوها لأننى غفلت عن أنّ ترك ولدى لركوبه معنا فى السفينة التى أمرنى الله بإعدادها لنجاة المؤمنين شاهد على أنه لا يأتمر بأمر ربه ، وأنه ليس معه بقلبه ، وأنه لا يستحق أن يكون داخلا فى الوعد بنجاة أهلى ، حتى أستنجز ربى ما وعدنى.واعلم أن ما فعله نوح فى شأن ولده ناشئ عن اجتهاد منه ، وبدافع الشفقة التى أودعها الله قلب كل والد ، وهذا لا يعتبر مثله موضع لوم وتحذير من الله ، ولا توبة من العبد . لكنه بالنسبة للأنبياء ليس كذلك ، فما يعتبر مخالفة يسيرة فى حقنا يعتبر ذنبا فى حقهم .

٤٨ - (قِيلَ يَانُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ....) الآية .

أى قالت الملائكة بأمر الله ، أو قال الله تعالى : يانوح اهبط من السفينة بسلامة وأمن منَّا إلى الأرض التى ابتلعت ماءها وأصبحت صالحة للنزول بها ، وهذه السلامة مصحوبة ببركات وخيرات دنيوية وأخروية ، عائدة عليك فى نفسك ونسلك ، وعائدة

أيضا على أمم سوف تنشأ ممن معك، وتتشعب منهم وعلى سنتهم من الإيمان إلى يوم القيامة، وهذه البشارة إعلام بقبول توبة نوح ونجاته من الخسران بفيضان الخيرات عليه فى كل ما يأتى ويذر، وعلى أمم مؤمنة تنشأ ممن ركبوا السفينة معه من المؤمنين.

(وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ) :

وأمم من ذريتهم ليسوا على سنتهم من الإيمان والعمل الصالح، سنمتعهم فى الدنيا فيستنفدون فيها طيباتهم، ثم يصيبهم فى الآخرة أو فيهما معا عذاب شديد الإيلام فأنت ترى أن السلام الذى هبط به نوح ومن آمن معه، دخل فيه كل مؤمن ومؤمنة من ذرياتهم إلى يوم القيامة، وأن المتاع العاجل والعذاب الآجل دخل فيه كل كافر وكافرة من ذرياتهم إلى يوم القيامة. وعن ابن زيد: هبطوا والله عنهم راض، ثم أخرج منهم نسلا، منهم مَن رَّحم ومنهم من عذب.

(تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾)

التفسير

٤٩ - (تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ .....) الآية.

بعد أن بيَّن الله قصة نوح وقومه مفصَّلة بدقائقها، جاءت هذه الآية تشير إلى أنَّ إخبار القرآن عن هذا الغيب البعيد يعتبر من آيات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم.

والمعنى: تلك القصة العجيبة التى فصل فيها ما حدث بين نوح وقومه، وما انتهى إليه أمرهم من الهلاك بالطوفان، هى من أنباء الغيب نوحيها إليك لتكون برهانا على نبوتك، وذلك لأنك:

(مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا) :

فإذا كان قومُك يجهلونها وقد عشتَ بينهم ولم تخالط غيرهم، فإن الذى أخبرك بها مطابقة لواقعها هو اللهُ الذى أرسلك، وجعلها وأمثالها آياتٍ تشهد برسالتك، وإن

أعرض قومك ولم يصدقوك .(فَاصْبِرْ):كما صبر نوح على معارضة قومه وإيذائهم له ولمن آمن معه. (إِنَّ العَاقِبَةَ) : بالظفر في الدنيا والفوز في الآخرة.(لِلْمُتَّقِينَ) :الذين يصبرون ولا يجزعون ولا يفترون، مهما عارضهم الكافرون، فقلوبهم واثقة من نصر الله، وجوارحهم مشغولة بطاعة الله .

(وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾)

المفردات :

(مُفْتَرُونَ) :كاذبون .(فَطَرَنِي) :خلقني ابتداءً من غير مثال سبق، والفطرة: الخلقة ابتداءً – كما قاله القرطبي . (يُرْسِلِ السَّمَاءَ) : يرسل السحاب ، فكل ما علاك سماء .

(مِدْرَارًا) : كثيرة الدُّرُورِ والسيلان .

التفسير

٥٠ – (وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا) :

بعد أن ذكَّر الله قريشا بما أصاب قوم نوح لمّا أصروا على كفرهم، زادهم تذكيرا ببيان ما أصاب غيرهم من الأُمم التي كفرت بالرسل ، وقدم قصة عاد على ما بعدها لأنها أقربها إلى قوم نوح ، وعاد هذه هي عاد الأُولى ، سميت باسم جدها الأَول وهم قوم يسكنون الأَحقاف بين الشحر وعُمَان وحضرموت ، وكانوا قوما جبارين عظام

الأجسام ؛ قال تعالى فى شأنهم : « ... واذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى الْخَلْقِ بَصْطَةً ... »[1] :

وهم من ذرية سام بن نوح ، وكانوا أهل أوثان وطغيان ، فأرسل الله إليهم رسولا من بينهم فطره على التوحيد ، وأنشأه نشأة الرسل الأطهار وهو هود عليه السلام ، ليدعوهم إلى التوحيد ، وترك ما هم عليه من الشرك والجبروت .

وقد عبرت الآية عن هود عليه السلام بأنه أخو عاد ، للإيذان بأنه منهم نسبًا ، وأنه نشأ بينهم ، فهم يعرفونه من منشئه إلى أن دعاهم إلى الحق ، ويعرفون من حسن سلوكه أنه لا يخدعهم ولا يدعوهم إلا إلى ما تدعو إليه الأخوة من الخير والحق ، فإن الرائد لا يكذب أهله .

والمعنى : وأرسلنا إلى عاد رسولا من بينهم هو هود ، ليأمنوا جانبه ويطمئنوا إليه لأنه نشأ فيهم ، وعرفوا صدقه وطيب نشأته .

(قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ ما لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ) :

تحكى هذه الآية ما جرى بين هود وقومه على وجه الإجمال ، فالمعقول والمنقول فى سياسة الرسل لأممهم أنهم لا يجابهونهم فى أول لقائهم معهم بوصفهم بالافتراء ، ففى سورة الأعراف يقول الله تعالى : « وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ »[2] فقد نصحهم بوقاية أنفسهم من عقاب الله ؛ بعبادته وحده ، ولم يصفهم بالافتراء ، فلذا يحمل وصفهم به هنا على أنه حدث بعد أن طال جدالهم ومعارضتهم له .

والمعنى : قال هود لقومه بعد ما نصحهم وذكرهم مدة طويلة ، وأصروا على شركهم قال لهم : اعبدوا الله ، ودعوا ما أنتم عليه من الإشراك به ، فليس لكم من إله سواه ، ما أنتم إلا كاذبون عليه فى اتخاذ الأوثان شركاء وجعلها مستحقة للعبادة معه ، وزعمكم أنها لكم شفعاء .

(١) الأعراف ، من الآية : ٦٩
(٢) الأعراف ، من الآية : ٦٥

٥١ - (يَاقَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِى فَطَرَنِى) :

خاطب هود قومه بأن دعوته خالية عن المطامع الدنيوية ، لبيان إخلاصه فى النصيحة ودفع الريبة عن دعوته ، وكذلك فعل كل رسول مع قومه إبعادا للتهمة عنه ، وطلبا لنجاح دعوته ، فإن الدعوات المشوبة بالمطامع لا نجاح لها .

والمعنى : ياقومى وأهلى ؛ أنا لا أطلب منكم أجرًا ، ولا أبتغى بدعوتى جزاءً دنيويا من مال أو جاه ، فما أجرى فى إرشادكم وهدايتكم على أحد إلا على الله تعالى ، فلا وجه لمخالفتكم وإمعانكم فى الإعراض عما جئتكم به من الله ، مع وضوح الآيات والتجرد عن المطامع الدنيوية ، ثم دعاهم إلى استعمال عقولهم ، وعاب عليهم إغفالها فقال : (أَفَلَا تَعْقِلُونَ) : أى أتغفلون فلا تستعملون عقولكم ، لتعرفوا الحق من الباطل والصواب من الخطأ .

٥٢ - (وَيَاقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ) :

وياقوم اطلبوا المغفرة من ربكم لما قدمتموه من الشرك والمعاصى بالإيمان والطاعة ، ثم توسلوا إليه بعد الإيمان بالتوبة والندم على ما فاتكم من طاعة الله ، وبالعزم على عدم العودة إلى طريق الشيطان الرجيم .

(يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ) :

أى إن تستغفروا الله وتتوبوا إليه من شرككم وجبروتكم ، يرسل السحاب عليكم كثير الدَّرغزير المطر ، ويعطكم قوة مضافة إلى قوتكم ، بتوفير الأسباب المؤدية إلى ذلك من الزرع والضرع والصناعة ، والحصون والبروج وغير ذلك ، وإنما رغبهم بكثرة المطر وزيادة القوَّة لأنهم كانوا أصحاب زرع وضرع ومصانع وحصون وقصور ، وكانوا ذوى جبروت وقوة ، كما قال تعالى : « أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ . وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ . وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ »(١) .

فرُغِّبوا فى الإيمان بتوفير ما يحبون لهم ، وسوف يعلمهم الإيمان وشريعة الرحمن كيف ينتفعون وينفعون بتلك النعم ، وكيف يوجهون قوتهم وجبروتهم فلا تكون إلا

(١) الشعراء ، الآيات : ١٢٨ - ١٣٠

فى الخير وإرهاب أهل الشر . ثم نصحهم بعدم الإعراض عما دعاهم إليه فقال :

(وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ) : أى ولا تنصرفوا معرضين عن دعوة الحق، مصرين على إجرامكم وعصيانكم .

(قَالُوا يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾)

المفردات :

(بِبَيِّنَةٍ) : بحجة . (عَن قَوْلِكَ) : أى من أجل قولك ، (بِمُؤْمِنِينَ) : بمصدقين . (لَا تُنظِرُونِ) : لا تمهلون .

التفسير

٥٣ - (قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ) :

قال شعب عاد لنبيهم هود ، وهم مصرون على رفض دعوته : ياهود أنت ماجئتنا بحجة تدل على صدق نبوتك ، يقولون ذلك ليجعلوا منه سبيلا إلى عدم الاستجابة إلى ما دعاهم إليه ، والحق أنهم كاذبون ، فقد جاءهم من المعجزات فوق ما يكفى لطمأنينة من ألقى السمع ، وأجال البصر ، وفكر بعقل حر ، فما من نبي إلا أيده الله من الآيات بما يكفى لإيمان أهل الحق . قال - صلى الله عليه وسلم - : « مَا مِنْ نَبِىٍّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ إِلَّا أُعْطِىَ مِنَ الآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِى أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَىَّ ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ » .

والمقصود من كون الذى أوتيه الرسول وحيا ، أنه اختص بالقرآن إلى جانب معجزاته الأخرى التى يشاركه فى مثلها الأنبياء ، فالقرآن هو أعظم معجزاته التى تحدى

بها البشر ، واعلم أن كل نبي أُوتى معجزة لم يؤتها غيره ، وهى التى تحدى بها قومه وهذا لا ينافى حصول خوارق أُخرى على يديه . وبعد أن نفوا مجىء هود عليه السلام ببينة قالوا :

(وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ) :

أى وما نحن بتاركى عبادة آلهتنا صادرين فى تركها عن قولك وما نحن لك بمصدقين نبوتك حتى نرفض آلهتنا بسبب قولك لنا : دعوها واتركوها .

٥٤، ٥٥ – (إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ...) الآية .

أى ما نقول فى شأْن ما أَنت عليه وجئتنا به إلا أنك أصابك بعض آلهتنا بشر ساءك فأَفقدك عقلك ، وجعلك تهذى وتتكلم بالخرافات عن آلهتنا ، وتدعو إلى إله واحد وتخوفنا بعقابه فى الآخرة ، إلى غير ذلك مما تقول ، ولقد سلك هؤلاء فى عنادهم سبيل التدرج والتسلسل ، فنفوا مجيئه ببينة ثم نفوا تركهم لآلهتهم لمجرد قوله لهم (اتركوها) دون أن يقنعهم بحجه تقتضى تركهم لها ، ثم نفوا تصديقهم له ، لأَنه لا حجة لديه تثبت نبوته ، ثم بعد هذا الهذيان كله قالوا فيه ما قالوه من السباب « قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ » .

ولقد حكى الله تعالى رده عليهم بعد هذا كله بقوله :

(قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ . مِن دُونِهِ) :

أى أُشهد الله على براءتى مما تجعلونه من غير الله شريكا له سبحانه ، واشهدوا أنتم على براءتى من ذلك ، فليس لكم على ما تزعمون برهان ، وما أُنزل به سلطان .

(فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ) :

أى فدبروا لى المكايد والمحن أنتم وشركاؤكم جميعاً ، بعد ما نلتُ منها وجَرَّدْتُها من وصف الأُلوهية ومقتضياتها ، وعاقبونى على امتهانى لها ، ولا تمهلونى ولا تتراخوا فى عقوبتى إن صح ما زعمتوه من أُلوهيتها .

وخطاب النبي هود عليه السلام لقومه بهذا الأسلوب الذى بلغ الغاية فى التحدى والتحقير لهم ولآلهتهم ، والإساءة لكبريائهم وجبروتهم وحميتهم وعصبيتهم ، مع ما عرف عنهم من سفك الدماء ، والعُنجهية والكبرياء ، وعجزهم عن تحقيق شىء مما تحداهم به مع كونه وحيدًا لا يؤيده سوى قليل من المؤمنين لاحول لهم ولا قوة ،هذا كله فيه برهان واضح على ثقته صلى الله عليه وسلم بتأْييد ربه وعنايته به ونصره له ، وعصمته من المكاره ، كما أنه برهان على أنه مرسل من الله ، حيث أعجزهم عن الإضرار به والقضاء على دينه ، فكأَن المولى يقول لعاد صدق هود فيما يبلغه عنى ، وقد عقَّب هذا التحدى الدال على ثقته بربه ، ببيان مصدر ثقته فقال :

﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ ﴾

التفسير

٥٦ - (إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّى وَرَبِّكُمْ) :

أى إنكم لن تضرونى بكيدكم لى مهما اجتمعتم عليه ، فإنى توكلت على الله مالكى ومالككم وخالقى وخالقكم، واعتمدت عليه فى دفع ضركم عنى ، وتآمركم على . «فَاللهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ» .[1] ثم أكد ثقته بربه وعدمقدرتهم عليه بقوله:

(مَامِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّى عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) :

أى ما من دابة من حيوانات الأَرض وأَناسيِّها إلا اللهُ مالك لها قادر عليها، يصرفها كيف يشاء غير مستعصية عليه ، إن ربى على سبيل من الحق والعدل مستقيم، فلا يضيع من اعتصم به ولا يفوته ظالم لنفسه أو لعباده .

---

(١) يوسف ، من الآية : ٦٤

والدابة كل ما يدب على وجه الأرض ، أى يتحرك عليها فيدخل فيها الإنسان والحيوان والناصية مقدم الرأس وتطلق على الشعر النابت عليها ، والأخذ بالناصية كناية عن القدرة والتسلط ، وفى البحر لأبى حيان أن هذا التعبير صار عرفا فى القدرة على الحيوان ، والتعبير بقوله : (إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) تمثيل لعدله واستقامة تدبيره لخلقه ، وجزائه لهم بالثواب والعقاب ، وأنه كاف لمن اعتصم به ، وفى الكشف أن فى قوله تعالى : (إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ) إلى آخر الآية ، ما يبهرك تأمله من حسن التعليل ، وأن من توكل على الله لا يبالى بهول ما ناله ، ثم التدرج إلى تعكيس التخويف بقوله : (رَبِّي وَرَبِّكُمْ) . فكيف يصاب من لزم سُدَّة العبودية وينجو من تولى عن ربه – إلى آخر ما نقله الآلوسى عنه ، فارجع إليه إن شئت .

(فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾)

المفردات :

(وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ) : يجعلهم خلفاء لكم فى دياركم . (حَفِيظٌ) : عليم .

التفسير

٥٧ – (فَإِنْ تَوَلَّوا[1] فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ) :

أى فإن تتولوا وتعرضوا عما دعوتكم إليه ، فلا عذر لكم ، فقد أبلغتكم رسالة ربى إليكم ، وبذلت لكم النصح ، وقدمت الحجج والبراهين ، وأديت حق ربى ، فلا تفريط منى ، ولا حجة لكم .

(١) أصله فإن تتولوا ، فحذف حرف المضارعة وهو التاء الأولى تخفيفا لثقل تكرار التاء .

(وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ) :

كلام مستأنف مراد به وعيدهم وإنذارهم ، بأنه تعالى سوف يهلكهم إن استمروا على كفرهم ، ويستخلف مكانهم قوما آخرين فى ديارهم وأموالهم .

(وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا) :

ولا تضرون ربى شيئا من الضرر ، لا بإعراضكم وتوليكم عن دينه ، ولا بإهلاككم بذنوبكم ، فإن هلاككم لا ينقص ملكه ، ولا يخل بأمره .

(إِنَّ رَبِّى عَلَى كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ) :

إن إلهى وخالقى على كل شىء رقيب . وبكل شىء عليم ، فلا يغيب عنه شىءٌ من أعمالكم ولا ما انطوت عليه صدوركم . وسوف يجازيكم على خطاياكم فى دنياكم وأُخراكم .

(وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَـٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾)

المفردات :

(أَمْرُنَا) : عذابنا الذى أمرنا به ، أو المراد به الإذن بالعذاب والأمر به .

(مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ) : من عذاب شديد لا يحتمل . (جَبَّارٍ عَنِيدٍ) : الجبار ؛ العاتى المتسلط ، والعنيد هو الذى يرد الحق ويرفضهُ وهو عارف به .

(وَأُتْبِعُوا فِى هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ القِيَامَةِ) :

جعلت اللعنة تابعة لهم فى الدارين ، واللعنة ؛ الطرد من الرحمة . (كَفَرُوا رَبَّهُمْ) : جحدوه وأنكروا وحدانيته . (بُعْدًا) : هلاكا .

التفسير

٥٨ - (وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا) :

أى : ولما نزل عذابنا بقوم هود الكافرين ، وكان بحيث يمكن أن يصيب المؤمنين نجينا هوداً ومن آمن معه برحمة منا ، حيث حفظناهم من العذاب الذى يمر بهم ولا يؤذيهم ، ويفتك بغيرهم ويكون رحمة لهم .

(وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ) : هذه الجملة معطوفة على مثيلتها السابقة لبيان ما نجاهم الله منه .

أى وكانت تنجيتنا لهود والمؤمنين من عذاب شديد الغلظة عظيم الفتك بالكافرين . حيث « ... أُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ . سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ . فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ » (١) . وكان مع هذا رحمة بالمؤمنين ، لا يضرهم ولا يصيبهم بمكروه .

٥٩ - (وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ) : المعروف من ظواهر النصوص أن عادا الأولى لم يرسل إليها سوى هود . لكن هذه الآية تقول إنهم عصوا رسله ، ويؤول ذلك بجعل عصيانهم لهود عصيانا لجميع رسل الله السابقين واللاحقين . لأن ما جاء به من التوحيد وأصول الشريعة لديه . جاء به جميع المرسلين فعصيان أحدهم يعتبر عصيانا لجميع الرسل .

والمعنى : وتلك الأمة (عادٌ) - التى مضى الحديث عنها - جحدوا بآيات ربهم الكونية الشاهدة بنبوة هود ، وبالشريعة التى تعبدهم الله بها ، وعصوا جميع رسل الله الذين أرسلهم لهداية البشر . فقد كذبوا رسولهم مباشرة ، وكذبوا جميع الرسل ضمنا بتكذيبهم له ، واتبعوا أمر كل متمرد طاغ معاند للحق من رؤسائهم وكبرائهم ، فقلبوا بذلك موازين الأمور ، حيث عصوا من دعاهم إلى ما ينجيهم ، وأطاعوا من دعاهم إلى ما يُرْدِيهِمْ .

---

(١) سورة الحاقة ، الآيات ٦ - ٨

٦٠ - (وَأُتبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ القِيَامَةِ) :

أى : وأُلزموا فى هذه الدنيا لعنة ، فلازمتهم ملازمة التابع للمتبوع ، حتى أوردتهم موارد الهلاك الغليظ ، وأُلزموها يوم القيامة ، حتى خلدتهم فى النار .

(أَلاَ إِنَّ عَاداً كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلاَ بُعْداً لِّعَادٍ قَومِ هُودٍ) :

كُفْرُ عَادٍ بربهم أمر مفهوم من قصتهم التى مر بيانها ، وإنما أُعيد ذكره هنا بهذا الأسلوب المنبه للسامع ، للإيذان بأن كفرهم هو سبب هلاكهم ولعنتهم حتى يخشى مصيرهم من كان على شاكلتهم .

والمعنى : ألا إن عادا كذبوا بوحدانية ربهم وجحدوا أنعمه ، ألا هلاكا لعاد قوم هود هؤلاء ، بسبب إصرارهم على كفرهم وعتوهم وعنادهم ، ويلاحظ فى الآية الكريمة تكرار حرف التنبيه (ألا) وإعادة لفظ (عَادٍ) للمبالغة فى تفظيع حالتهم ، والحث على الاعتبار بقصتهم .

والتعبير بقوله :(عَادٍ قَوم هُودٍ) للإيذان بأنهم عاد الأُولى تمييزاً لهم عن عاد إرم - وتسمى عاداً الثانية وهم بقية من عاد الأُولى ، وإرم مدينتهم وقصبتهم ، وكانوا أهل ترف ومال ولكنهم لما كفروا وبغوا فى الأرض صب عليهم الله العذاب ، قال تعالى فى شأنهم فى سورة الفجر : « أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ العِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فى الْبِلاَدِ » . إلى قوله : « فَصَبَّ عَلَيهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ . إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ » .

(* وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم
مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا
فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا يَٰصَٰلِحُ
قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ
ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾)

المفردات :

(أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ) :ابتدأ خلقكم من الأرض وأوجدكم منها بخلق أبيكم آدم من ترابها .(وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا) : جعلكم تعمرونها ، إذ مكنكم من العمل فيها واستثمارها والبناء عليها (مَرْجُوًّا) : موضع رجائنا وأملنا إذ كان فاضلا خيرًا .(مُرِيبٍ): مُوقع فى الريبة وقلق النفس وعدم الاطمئنان .

التفسير

٦١ - (وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا)... الآية .

وأرسلنا إلى قبيلة ثمود واحداً منهم وأخا لهم فى النسب يُسمَّى صَالِحًا - أرسلناه مُبلِّغاً رسالة ربه فناداهم فى رفق ولين - (قال ياقوم) : يا أهلى ويا عشيرتى ؛تليينا لقلوبهم وجذبا لنفوسهم ، كى يقبلوا فى يسر وسهولة على امتثال ما أمرهم به فى قوله :

(اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ) . أى آمنوا بالله وحده ، وأفردوه بالعبادة ، ليس لكم أى إله يستحق أن يعبد سواه .

ثم علَّل صالح دعوته إلى توحيد الله بإنعامه - تعالى - عليهم بأعظم النعم فيما حكاه القرآن بقوله : (هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا) : أى هو الله -سبحانه-لا غيره أوجدكم من الأرض ابتداء باعتبار خلقه آدم أبا البشر منها ،ويجوز أن

يكون المراد ـ أنشأكم من الأرض ـ باعتبار أن النطف التى خلقت منها ذرية آدم تتكون من الأغذية التى نحصل عليها من زروع الأرض وثمارها ـ أوجدكم من الأرض ـ فأنتم مدينون له بحياتكم ووجودكم .

(وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا) : أى وأقدركم على عمارتها ، ومكنكم من العمل فيها ومن استثمارها وبناء ما تسكنون فيه على ظهرها ، بما وهبكم من عقل وقوة ، وبما سخر لكم فيها من وسائل تنفذون بها ما ألهمكم معرفة كيفيته .

ولمَّا كان إحسانه ـ تعالى ـ عليهم بتلك النعم يستدعى الاستغفار والتوبة ، رتب عليه الأمر بهما إذ قال : (فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ) : أى فاطلبوا ممن غمركم بإحسانه العميم أن يستر بإيمانكم وأعمالكم الصالحة ما اقترفتموه من الشرك والخطايا ، ثم ارجعوا إليه بتخليص أنفسكم من الذنوب نادمين على ما فرط منها ، عازمين على عدم العودة إلى معصيته ، مقبلين على طاعته راجين رحمته .

ثم رغَّبهم فى الاستغفار والتوبة بقوله : (إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ) : أى إن ربى الذى أدعوكم إلى عبادته قريب بعفوه ممن يحسنون إلى أنفسهم بالاستغفار والتوبة من الشرك والخطايا ، مجيب دعاء من رجع إليه وأناب . قال تعالى : « إِنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ » . وكانت ثمود تقيم بالحجر بين الحجاز والشام .

٦٢ ـ (قَالُوا يَاصَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ) :

قال قوم صالح يردُّون على دعوته إيَّاهم إلى التوحيد : ياصالح قد كنت بيننا رجلا فاضلا خيرًا نؤمِّلك لمهمات أمورنا ، كنت كذلك بيننا قبل هذا الذى أمرتنا به ودعوتنا إليه من التوحيد وترك عبادة الأوثان ، ثم خاب رجاؤنا فيك وانقطع أملنا وساء ظننا بعد أن سمعنا منك ما قلته لنا ، ثم خاطبوه باستفهام ينكرون به عليه مادعاهم إليه إذ قالوا : (أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَايَعْبُدُ آبَاؤُنَا) : أى أتطلب منا أن نترك عبادة الأوثان التى أقام على عبادتها آباؤنا طول حياتهم ، إن هذا لشئ نرفضه ولا نقبله ،

(وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ) : أى أتنهانا عن فعل ماورثناه عن آبائنا وإننا لفى شك بالغ من صحة كل ما جئتنا به ، مريب موقع فى قلق شديد دائم لنفوسنا ، ومثير لا ضطراب مستمر فى قلوبنا .

(قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾) فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾)

المفـردات :

(أَرَأَيْتُمْ) : أخبرونى عما سأسألكم عنه . (بَيِّنَةٍ) : حجة واضحة وبرهان ظاهر . (وَآتَانِى مِنهُ رَحْمَةً) : نبوةً ورسالة فهى من رحمة الله . (فَمَن يَنْصُرُنِى مِنَ اللهِ) : فمن ينجينى ويمنعنى من عذابه . (تَخْسِيرٍ) : تضييع وإنقاص بإبطال عملى وتعريضى لغضب الله . (آيَةً) : معجزة . (فَذَرُوهَا) : فدعوها واتركوها . (فَعَقَرُوهَا) : فنحروها . يقال : عقرت البعير إذا نَحَرْتَهُ . (تَمَتَّعُوا فِى دَارِكُمْ) : أقيموا فى بلدكم وانتفعوا بأرزاقكم وبكل ما يسركم . (وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ) : وعيد صادق .

التفسـير

٦٣ - (قَالَ يَاقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَآتَانِى مِنْهُ رَحْمَةً) ... الآية .

بعدأن بينت الآية السابقة أن قوم صالح أنكروا دعوته وارتابوا فى صدقها ، ورغبوا فى استدراجه

إلى موافقتهم ، جاءت هذه الآية تحكى ردَّه عليهم وتبيِّن أنهم لا يستطيعون ولا يستطيع أحد سواهم إنقاذه من عذاب الله إن أطاعهم فيما يرون .

والمعنى : قال صالح – عليه السلام – فى ردِّه عليهم – ياقوم – أخبرونى إن كنت على طريقة واضحة وبصيرة نافذة من لدن ربى ، وأعطانى من عنده نبوة ورسالة – رحمة لى ولكم – أجيبونى عمَّا أسألكم عنه بقولى :

(فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ اللهِ إِنْ عَصَيْتُهُ) :

أى فمن يمنعنى من عذاب الله وينجينى من عقابه إن أطعتكم وعصيته –سبحانه– فلم أبلغكم رسالته ، ولم أحذركم من الشرك وعبادة الأصنام؟ لا أحد مطلقا يستطيع منعى من عقابه –تعالى– إن فعلت ذلك .

ثم رتب على عصيانه إن وقع ، بعد إنعام الله عليه بالنبوة ، إحباط عمله ، كما حكاه الله بقوله :(فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ) : أى فما أستفيد منكم إن جاريتكم فيما تشتهون سوى أن تجعلونى بهذا الاتباع خاسرا ، بإبطال عملى وتعريضى لغضب الله وعقابه ، ولا شك أن صالحا – عليه السلام– كان جازما بأنه على بيِّنة من ربه ، ولكنه عبر بإن التى للشك فى قوله :(إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ) :مجاراة لقومه فيما يزعمون ، ورعاية لحسن المحاورة لا ستنزالهم عن المكابرة .

هذا ويمكن أن يقال إن استعمال (إن) فى الشك غالب ، ولكنها قد تستعمل عند اليقين كما هنا ، انظر إلى لفظ (ما) فإنه يستعمل فى غير العاقل غالبا . ولكنه قد يستعمل فى العليم الخبير كما فى قوله تعالى : « وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا » .

٦٤ – (وَيَاقَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً) :

أى وقال صالح يخبر قومه بمجيء معجزة عظيمة :ياقوم هذه ناقة عظيمة الشأن ،شرفها الله بنسبتها إليه ، وأوجدها على خلاف ما عرفتم وألفتم فى خلق جنسها ، ومن خصائصها المميزة أنها تشرب الماء وحدها فى يوم ، والقوم جميعا وما معهم من حيوانات يشربونه فى آخر.قال تعالى : «هَذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ».[1] أوجدها كذلك لكم خاصَّة لتكون معجزة عظيمة تستدلون بها على قدرته –تعالى– وعلى صدقى فيما أبلغكم به عن ربى

(١) سورة الشعراء ، الآية : ١٥٥

(فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللهِ) : أى فاتركوها تأكل وترعى وتشرب فى أرض الله دون أن تكلفوا بتحصيل شى من مؤونتها .

(وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ) : أى ولا تصيبوها بأدنى سوء ولا بأقل أذى ، فيأخذكم ويستأصلكم لأجل ذلك عذاب عاجل .

٦٥ - (فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ) : أى فنحروها مخالفين ما أمروا به ، فقال لهم بوحي من الله : استمتعوا فى بلدكم بكل مايسركم فى اطمئنان ودَعة مدّة ثلاثة أيام ، والمراد أنهم بعد هذه الأيام الثلاثة يهلكون ، ولذلك قال عقبها : (ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ) : أى ذلك العقاب الهائل الذى أنذرتكم وقوعه بعد عقر الناقة بثلاثة أيام وعيد صادق يقع حتما ولا يتخلف لأنه من عند الله .

(فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾)

المفـردات :

(فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا) : فلما نزل عذابنا . (وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ) : ومن ذل وفضيحة هذا اليوم . (الصَّيْحَةُ) : صوت قوى مفزع زلزل الأرض بهم .

(جَاثِمِينَ) : باركين على الركب هامدين موتى لايتحركون .

(كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا) : كأنهم لم يقيموا فى ديارهم ولم يحيوا فيها .

التفسير

٦٦ - (فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ) :

أى فلمّا نزل عذابنا بثمود، بعد مضى المدّة التى أُنذروا بنزول العذاب بعدها، نجّينا صالحا والذين آمنوا معه من الهلاك معهم، بسبب رحمة عظيمة من لدنا وسعتهم وحفظتهم، لإيمان صالح ونبوته وإيمان المصدقين برسالته العاملين بشريعته.

(وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ) :

أى ونجيناهم من ذل وفضيحة يوم العذاب المهين الذى نزل بكفار ثمود.

(إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ) :

خطاب لمحمد - صلى الله عليه وسلم - تخلل الحديث عن قصة صالح تقوية لعزمه، أى إن ربك الذى يرعاك يامحمد، هو وحده القادر على كل شئ الغالب فى كل وقت فلا يعجزه شئ أراده، فلذا أخذ قوم صالح أخذ عزيز مقتدر. وفيه إنذار شديد للمشركين إن أصرّوا على الكفر والجحود «وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ»[1].

٦٧ - (وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ) : أى وأخذ الذين ظلموا بتكذيب رسالة صالح - أخذهم - العذاب بصيحة قوية مفزعة زلزلت بهم الأرض فصعقوا وانتهت حياتهم فى مساكنهم باركين على ركبهم خامدين لا يتحركون.

٦٨ - (كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ) :

أى فأصبحوا وقد انتهى أمرهم من ديارهم فلم يبق لهم فيها من أثر يذكرون به - إلا الصورة المفزعة لهلاكهم - كأنهم لم يقيموا أصلا فى تلك الديار - فليعتبر بحال هؤلاء كل من يجترىء على تكذيب رسل الله والكفر بهم، فما وقع لثمود كان بسبب كفرهم كما قال تعالى: (أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ) : ألا إنّ ثمود قوم صالح - عليه السلام - قد أنكروا ربهم فاستحقّوا ماوقع عليهم وأن يقال فيهم هلاكا وطردا من رحمة الله وإحسانه لثمود.

(١) سورة هود، الآية : ١٠٢

(وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ
فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ
إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ
إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾)

المفـردات :

(بِالْبُشْرَى): بالخبر السار. (حَنِيذٍ): سمين أو مشوى بالدس فى النار كما قال ابن عباس، وفسّره مجاهد بالمطبوخ، وهو أعم. والعجل ولد البقر. (نَكِرَهُمْ): جهلهم ووجدهم على غير ما يعْهد. (أَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً) : استشعر من جهتهم شيئا يخافه، أو أخفى وأضمر خوفا منهم.

التفسـير

٦٩ـ (وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ) الآية.

فى هذه الآية وما بعدها ذكر طرف من قصة إبراهيم. كالتمهيد للحديث عن قصة لوط ـ عليهما السلام ـ.

والمعنى : ولقد جاءت رسلنا من الملائكة إلى إبراهيم يبشّرونه بما يسرّه، قائلين له فى أول لقائهم له : « سَلَامًا » أى نسلم عليك سلاما.

وهزّت إبراهيم سجية الجود والكرم فأسرع بتقديم الطعام، وذلك قوله تعالى : (فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ) : أى فلم يتأخر إبراهيم ـ عليه السلام ـ فى مجيئه بعجل سمين مشوى إلى أضيافه ليأكلوا منه، بل جاء به على عجل كاملا ـ وإن كان يكفيهم بعضه ـ مبالغة فى إكرامهم ..

واختلف فى هذا العجل : هل كان مهيَّئا قبل مجيئهم ، أَو أَنه هُيِّئَ على عَجَلٍ بعد مجيئهم ، واختار الأَول أَبو حيان ، واختار الآلوسى الثانى لأَنه أَبلغ فى الإِكرام .

٧٠ - (فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ) :

أَى فلما رأَى إِبراهيم - عليه السلام - أَيدى الملائكة لا تمتد إِلى لحم العجل الذى قدمه لقِراهم ولا تتناول منه شيئا ليأْكلوه ، استنكر ذلك منهم وشعر بالخوف من جهتهم فإِنَّ الغريب إِذا قدم له الطعام لإِكرامه ، يبادر إِليه ولا يمتنع عنه إِلا إِذا كان يريد برب البيت سوءًا .

قالوا حين رأَوا أَمارات الخوف منهم بادية عليه : لا تخف ضررًا من جهتنا ، إِننا أُرسلنا من الله إِلى قوم لوط لإِهلاكهم جزاءَ إِتيانهم فاحشةً ما سبقهم إِلى فعلها أَحد من العالمين .

(وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَـٰهَا بِإِسْحَـٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَـٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَـٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَـٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾) .

المفـردات :

(فَضَحِكَتْ) : سرورا بما رأَت وسمعت من زوال الخوف عن زوجها وكلام الملائكة له ومجيئهم لإِهلاك المجرمين. (فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَٰقَ) : أَى فأَتبعنا سرورها سرورا أَتم

وأعظم على ألسنة ملائكتنا. (يَاوَيْلَتَا) : ياعجبًا. وأصل الويل الهلاك وهو غير مراد هنا. والنساء يستعملنها كثيرا إذا حدث ما يتعجبن منه. (بَعْلِي) : زوجي : والبعل فى الأصل الذى يقوم على تدبير الأمور ، فأُطلق على الزوج لأنه يقوم على شئون المرأة .

(أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ) : أتعجبين من قدرة الله وحكمته . (وَبَرَكَاتُهُ) : وخيراته التامّة المتكاثرة . (حَمِيدٌ) : محمود لذاته وأفعاله . (مَجِيدٌ) : واسع الإحسان كثير الإنعام .

التفسير

٧١ـ (وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ) :

أى حدث ما حدث من المحاورة بين الملائكة وإبراهيم ، وزوجته قائمة وحاضرة ترى وتسمع ماجرى بينهم ، فضحكت فرحا وسرورا بزوال الخوف عن زوجها ، واستبشاراً بقرب هلاك القوم المفسدين ، وقد فهمت ذلك من قولهم لإبراهيم : (إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ) ،

(فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ) : أى فأتبعنا سرورها بما سبق سرورا عظيما وذلك بإلقاء البشرى إليها على ألسنة الملائكة بأنها ستلد «إسحق» وترى من بعد إسحق «يعقوب» ولدا له وحفيدا لها .

وقد وجهت البشارة إليها؛ لبيان أن الولد المبشر به يكون منها ومن إبراهيم ، فإن البشارة لو وجهت لإبراهيم ، لأدركها الشك بأنه يأتى بإسحق من غيرها لعقمها . وكانت حريصةً على أن يكون لها ولد ، وقد تمنته بعد أن ولد إسماعيل لهاجر .

٧٢ـ (قَالَتْ يَاوَيْلَتَا أَأَلِدُ وأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخاً) الآية .

أى قالت سارة امرأة إبراهيم حين بشرت بالولد ياعجبا ، أيولد لى وأنا عجوز عقيم قد تقدمت بى السنُّ وذهبت قوتى وضعف بدنى وغاب الطمث عنى ، وهذا الذى تشاهدونه زوجى القائم على رعايتى قد صار شيخا كبير السن لم تجرِ العادةُ أنَّ مثلنا ينجب الأولاد .

(إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ) : أى إن هذا الذى بشرتم به من حصول الولد من شيخين مثلنا يثير فى النفس التعجب ، فقد جرت سنة الله فى عباده أن يكون إنجاب الأولاد فى زمن الصحة والقوة ووجود الطمث غالبا - والطمث الحيض - ولم يكن تعجب زوجة إبراهيم استبعادًا لحدوث ذلك بالنسبة لقدرة الله- تعالى - وإنما كان استعظامًا لحصول تلك النعمة فى غير أوانها المألوف .

٧٣-(قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ) :

أى قالت الملائكة منكرين عليها تعجبها ودهشتها من حصول ذلك ، وكان عليها أن تتريث حتى تتحقق البشارة . فإنه لا عجيب على قدرة الله سبحانه وتعالى ، وكأنهم قالوا لها : لا تعجبى مما قدره الله وأراده على خلاف ما جرت به سنته الغالبة فى خلقه ، فإن خوارق العادات بالنسبة لآل بيت النبوة ومهبط المعجزات وتخصيصهم بمزيد من النعم والكرامات ليس ببدع ولا غريب كما يؤذن به قوله تعالى :

(رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ) :

أى رحمة الله التى وسعتكم بكل خيراتها ، وبركاته التامة المتكاثرة تفيض عليكم ياأهل بيت النبوة ، ومن تلك الرحمات وهذه البركات هبة الأولاد فى غير أوانهم المعتاد .

(إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ) :

أى إنه سبحانه يستحق الحمد لذاته ، يصدر عنه ما يستوجب حمده من عباده ، كثير الخير والإحسان ، رفيع الشأن ، متصف بأعظم صفات المجد .

(فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾)

المفردات :

(الرَّوْعُ): الخوف والفزع. (لَحَلِيمٌ): لمتصف بكثرة الحلم لايعجل بالانتقام من المسيء. (أَوَّاهٌ): كثير التأوه والتوجع رحمة بالناس. (مُّنِيبٌ): كثير الرجوع إلى الله بالدعاء والاستغفار والعبادة. (غَيْرُ مَرْدُودٍ): غير مدفوع

التفسير

٧٤ ـ (فَلَمَّا ذَهَبَ عن إِبْرَاهِيمَ الرَّوعُ ....) الآية .

بعد أن حكى القرآن الكريم بعضا من أحوال إبراهيم ـ عليه السلام ـ وزوجته جاءت هذه الآية والآيتان بعدها تذكر بعضا آخر من أحواله وشئونه ومجادلته عن قوم لوط .

والمعنى : فلما زال عن إبراهيم مالحقه من الخوف والفزع حينما امتنع ضيوفه من تناول طعامه ، واطمأنت نفسه بعد أن عرف أنهم ملائكة الله (وَجَآءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ) : أى وحل محل الخوف شعور بالسرور حينما بشروه بعد سن اليأس بغلام عليم ، فلما حدث ذلك أخذ إبراهيم ـ عليه السلام ـ يجادل رسل الله فى شأن قوم لوط وإهلاكهم وقد حكى القرآن الكريم قصة مجادلة إبراهيم للملائكة بشأنهم فى قوله ـ تعالى ـ :

« وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوٓ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ . قال إِنَّ فِيهَا لوطًا .... » [1] الآية ، وقد اعتبر قول إبراهيم « إِنَّ فِيهَا لُوطًا » جدالا عنهم

(١) سورة العنكبوت الآيتين ، ٣١ ، ٣٢

لأن المراد منه : كيف تهلكون أهل هذه القرية وفيهم من هو مؤمن بالله لا يستحق العذاب ، وعلى رأسهم نبي الله لوط-عليه السلام-ولذا أجابته الملائكة بقولهم : « نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ ». وكأن إبراهيم-عليه السلام-فهم أن وجود المؤمنين مع الظالمين فى قرية واحدة يُبيح له الجدال عن أهل القرية جميعا ؛ حرصا على سلامة المؤمنين . يضاف إلى ذلك ما فطر عليه من الحلم والرحمة كما بينه القرآن فى قوله - تعالى - : (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ) : أى كان جدال إبراهيم لما تقدم . ولأنه عظيم الحلم يملك نفسه فلا يعاجل بالانتقام من المسيء ، كثير التأوه رقيق القلب عظيم الإشفاق يتأثر كثيرا ويتوجّع لما يصيب غيره من مكاره وخطوب ، متصف بالإنابة إلى الله والرجوع إليه يعمل ما يحبه ويرضاه ،

ولعل جداله عن قوم لوط مع علمه بكفرهم رجاء أن يؤمنوا بالله - تعالى - بالإضافة إلى ما سبق بيانه من خوفه على لوط ومن آمن معه .

٧٦ - (يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ) :

أى قالت الملائكة - بأمر من الله - ياإبراهيم ابتعد عن هذا الذى ترجوه لهؤلاء وتجادل فيه ، ولا تلتمس بجدالك رحمة لهؤلاء القوم ، ولا تخفيفا عنهم ؛ إنه قد قرب وقت هلاكهم الذى قضاه - سبحانه - وقدره فى أزله القديم ، وإن هؤلاء الظلمة من قوم لوط واقع بهم لا محالة عذاب غير مدفوع عنهم بجدال أو دعاء ، ولا تستطيع قوة فى الأرض صدّه أو ردّه عنهم .

(وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ
هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ
كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ
لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ
رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾)

المفردات :

(سِىءَ بِهِمْ) : أُصيب بالغم والحزن بسبب مجيئهم وساءه ذلك ، (وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا) : عجزت طاقته وضعف جهده عن احتمال ما يترتب على مجيئهم من شرور قومه ، والمراد أنه لم يجد لهذا المكروه مخرجا . يقال ضاق بالأمر ذرعا إذا لم يطقه ولم يقدر عليه.
(عَصِيبٌ) : شديد الإيذاء . والعصْب : الشد بالعصابة .

(يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ) : يسرعون إليه ؛ كأنما يدفع بعضهم بعضا مسارعة إلى الفاحشة .

(وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِى) : أى ولا تفضحونى ولا تلحقوا بى الذل والهوان فى شأن ضيوفى النازلين عندى .

التفسير

٧٧ـ (وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا ...) الآية .

بعد أن حكى القرآنُ الكريم بعضا من أحوال إبراهيم وزوجته كالتمهيد لقصة لوط جاءت هذه الآية والآيات بعدها تحكى بشىء من التفصيل ماجرى بين لوط وقومه ، من التوسل إليهم ليعدلوا عن الفاحشة إلى آخر ما ستذكره الآيات .

والمعنى : ولما جاءت رسل الله من الملائكة لوطا من عند إبراهيم حزن بسبب مجيئهم حزنا شديدا. لأنهم جاءوه فى صور شباب من البشر حسان الوجوه، وخشى أن يقصدهم قومه لارتكاب الفاحشة التى اشتهروا بها فيعجز عن مدافعتهم ؛ وضاقت طاقته وضعف جهده عن احتمال نزولهم عنده. لعدم قدرته على تخليصهم من شر توقع حدوثه لهم من قومه.

(وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ) : أى وقال لوط - عليه السلام - تعبيرا عن شدة ما لحقه من الهلع والفزع : هذا اليوم الذى نزل فيه هؤلاء الضيوف يوم شديد الشر لا أستطيع احتمال ما يحدث فيه لضيوفى .

٧٨ - (وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ . . .) الآية .

أى ولمَّا علم القوم بوجود هؤلاء الضيوف الحسان عند لوط. جاءوا إليه يسرعون الخُطا فى لهفةٍ طلباً للفاحشة . وتلهفهم على فعل الفاحشة لم يكن غريبا ؛ فقد اعتادوا فعل المنكرات من قبل ذلك كما قال تعالى :

(وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ) : أى ومن قبل مجئ الملائكة إلى لوط كان قومه مستمرين على ارتكاب الآثام دائبين على فعل الموبقات ؛ فلا عجب إذا طلبوا الفاحشة مع ضيفه علنا جهارا بغير مبالاة .

(قَالَ يَاقَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ) :أى وحين أسرع قوم لوط إلى طلب الفاحشة مع ضيوفه ناداهم قائلا : (يَاقَوْمِ) ليستميلهم ويرقق قلوبهم ؛ واستمرّ فى محاولة تليين قلوبهم وجذب عواطفهم عسى أن يثوبوا إلى الرشاد . فعرض عليهم عرضا كريما بقوله :

(هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ) : أى فتزوجوا بهن ، هن أنظف وأشرف لكم ، وليس فيما دأبتم عليه من إتيان الرجال شهوة من دون النساء شيءٌ من الطهر ؛ فالنظافة والطهارة فى التزوج بالنساء ، والدنس والخبث فى إتيان الذُّكران من العالمين . قال الآلوسى : وكانوا يطلبون التزوج ببناته من قبل ولا يجيبهم لخبثهم وعدم كفاءتهم ، لا لعدم مشروعية زواج المؤمنات من الكفار فإنه كان جائزا ، وقد زوج النبى صلى الله عليه وسلم ابنته زينب لأبى العاص بن الربيع وكان مشركا قبل أن ينزل تحريم ذلك إلى آخر ما قال ، وقد ذكرنا هنا تلخيصه .

(فَاتَّقُوا اللهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي) :أى فاحفظوا أنفسكم من عذاب الله بترك ذلك الدنس، ولا تلحقوا بى الخزى والذل والعار بسبب إهانة ضيفى . فإن إهانتهم إهانة لى .

(أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ) :أى ألا يوجد من بينكم رجل سديد الرأى رشيد العقل يأمركم بالمعروف وينهاكم عن المنكر ويقنعكم بترك الفاحشة أو يمنعكم من ارتكابها وإذا كان لا يوجد بينكم هذا الرجل الرشيد فذلك منكر تستحقون عليه شديد اللوم وبالغ التقريع .

(قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾)

المفردات :

(مَالَنَا فِي بَنَاتِكَ) : المراد به هنا؛ مالنا فيهن من حاجة ولا شهوة فعندنا نساؤنا.

(آوِي) :ألجأ . (رُكْنٍ شَدِيدٍ) : جانب قوى أتقوى به وأستند إليه وأعتمد عليه ، وكل ما يتقوى به من ملك وجند وقوم يسمى ركنا .

التفسير

٧٩ - (قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ) :

أى قال قوم لوط معرضين عن قبول ما عرضه عليهم ونصحهم من التزوج ببناته : لقد عرفت يالوط غرضنا وقصدنا ، ليس لنا في بناتك أى حاجة نعتبرها هدفا لنا وغاية لمجيئنا ، وإنك يا لوط بدون شك وبلاريب لتعرف قصدنا من المجىء وغايتنا من الإسراع ، وتدرك يقينا رغبتنا فيمن عندك .

ولما يئس لوط - عليه السلام - من إقناع قومه بترك ما هم عليه من الفساد . تمنى أن تكون له قوة تردهم عن ضيوفه ، وذلك ما حكاه الله بقوله :

٨٠ - (قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِى إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ) .

أى قال لوط - عليه السلام - لو أن لى طاقة وقدرة تنهض بردعكم ، أو أن لى جانبا قويا أستند إليه وأستنصر به عليكم لردعْتُكم عن غَيِّكم ، وحفظت كرامتى وصنتُ ضيفى من الاعتداء عليهم وإيذائهم .

وقال لوط ذلك لأنه لم يكن فى منعة من قومه ، وقد أُرسل إلى أهل «سدوم» وهى قرية عند حمص .

وقد استغرب رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم مقالة لوط ، فقد جاء فيما رواه البخارى عن النبيِّ صلىَّ الله عليه وسلَّم قال : « رَحِمَ اللهُ أَخِى لُوطًا كَانَ يَأْوِى إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ » . يقصد صلى الله عليه وسلم أنه كان يلجأُ إلى الله تعالى فإنه لا ركن أشدّ منه ، ولكنّه لهول المفاجأة وشدة الكرب قال ما قال وهو يعلم أنه لا ركن أشد من الله تعالى .

(قَالُوا يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾)

المفردات :

(فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ) : فَسِرْ بهم ليلا . (بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ) : فى جزء منه .

(مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ) : أى موعد عقابهم الصبح .

التفسير

٨١-(قَالُوا يَالُوطُ ...) الآية .

أى لمَّا رأت الملائكة مااستولى على «لوط»من الكرب قالوا له مطمئنين : (يَالُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ) :أى إنَّا رسل من عند ربِّك جئنا لإهلاك قومك وتطهير الأرض من دنسهم.(لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ) :أى لن يصل إليك هؤلاء الآثمون بضرر فى نفسك ولا فى ضيفك.(فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ) : أى فاخرج بأهلك فى جزء من الليل . (وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ) : أى ولا تنظر أنت ولا تترك أحدا من أهلك ينظر إلى الوراء أثناء سيركم ، لئلا يرى هول ما نزل بقومهم . فيحصل لهم كرب قد لا يطيقه ، لكن امرأتك لا تخرج بها مع أهلك واتركها مع قومك ، فإنها خانتك بِمُمَالأتهم عليك ، ونفاقها فى الإيمان بالله ، وإفشائها أسرارك إلى قومها ، فدعها معهم ليصيبها ما يصيبهم من عقاب أليم ، ثم علل الأمر بالإسراء بأهله والنهى عن الالتفات بقوله سبحانه : (إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ) : أى فأسرع السير بأهلك تحت جنح الظلام كى تبتعد عن مواقع العذاب الذى تحدد الصبح وقتا لنزوله . (أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ) : أى إن موعد هلاكهم الصبح وهو وقت قريب جدًّا ،وكان الصبح ميقاتا لهلاكهم لأنه وقت الدَّعة والراحة والهدوء ،فيكون نزول العذاب بهم فيه أشدَّ.

(فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾)

المفردات :

(أَمْرُنَا) : أى عذابنا أو الأمر به ، وهو على الأول واحد الأمور ، وعلى الثانى واحد الأوامر.

(جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا) : أى قلبناها فصار أعلاها إلى أسفل وأسفلها إلى أعلى .

(سِجِّيلٍ) :طين قد تحجر ، (مَنضُودٍ) :متتابع بعضه إثر بعض .

(مُسَوَّمَةً) : معلمة بعلامات تميزها عن غيرها .

التفسير

٨٢ - (فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ) :

أى فلمّا جاء الوقت الذى أمرْنا بوقوع العذاب فيه - وهو الصُّبح - أو جاء العذاب الذى قدرنا نزوله بهم فى الصباح . جعلنا ما كان عاليا من مبانى القرى والمدن سافلا . وأنزلنا على أهل تلك القرى مطرا من حجارة من طين تحجر - هذه الحجارة أنزلناها على هذه القرى متتابعة بعضها إثر بعض كتتابع المطر النازل من السماء .

٨٣ - (مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ...) الآية .

أى هذه الحجارة التى أُمطروا بها من السماء كانت مُعلَّمة وميَّزة عند ربِّك بما يدل على أنها ليست من حجارة الأرض . وأنه - سبحانه - أعدّها لعذاب هؤلاء .

(وَمَا هِىَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ) : أى وليست تلك الحجارة الموصوفة بما ذكر ببعيدة عن غيرهم من كل ظالم يأْثَم إثمهم ويظلم ظلمهم . فلا تكون بعيدة عن الكفار من قومك يامحمد فليسيروا إلى تلك القرى وليعتبروا بما وقع فيها لعلهم يؤمنون .